هاشم حسين علي الخصاونة

«ما لبثوا غير ساعة»



بين الموت والحياة

«يوماً أو بعض يوم»

الزمن بعد الموت

الطبعة الأولى

بين الموت والحياة

يوماً أو بعض يوم: الزمن بعد الموت

هاشم حسين علي الخصاونة

الطبعة الأولى — 1448هـ / 2026م

بين الموت والحياة

يوماً أو بعض يوم: الزمن بعد الموت

تأليف: هاشم حسين علي الخصاونة

الطبعة الأولى: 1448هـ / 2026م

© هاشم حسين علي الخصاونة، 2026. جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

يُؤذن بتداول نسخته الإلكترونية ونشرها كما هي، مع ذكر المؤلف. ولا يجوز تغيير نصه أو الاقتباس منه بما يخلّ بمعناه دون إذن خطي من المؤلف.

ما في هذا الكتاب رأيٌ من باب التدبر والتفكر والاجتهاد، يحتمل الخطأ والصواب، يعرضه المؤلف على القارئ ولا يُلزم به أحداً.

المحتويات

المقدمة 5

الباب الأول: الله والزمان والعدل 11

الفصل الأول: الله لا يجري عليه زمننا 12

الفصل الثاني: اليوم عند الله واليوم عندنا 19

الفصل الثالث: العدل والقدرة 24

الباب الثاني: القرآن — موت ثم بعث ثم حساب 31

الفصل الرابع: الموت والنوم 32

الفصل الخامس: آيات اللبث — الدليل المركزي 39

الفصل السادس: تجربتان قرآنيتان 48

الفصل السابع: البرزخ في القرآن — حاجز إلى يوم يُبعثون 54

الفصل الثامن: تسلسل المصير في القرآن 60

الباب الثالث: مسألة عذاب القبر 65

الفصل التاسع: قواعد البحث — بأي ميزان نزن ما يخالفنا 66

الفصل العاشر: مسألة عذاب القبر — أدلة المثبتين 74

الفصل الحادي عشر: مناقشة أدلة المثبتين — الآيات 80

الفصل الثاني عشر: الأحاديث — ماذا تواتر؟ 88

الفصل الثالث عشر: من قال بهذا قبلنا 98

الباب الرابع: الروح والنفس ولحظة الموت 105

الفصل الرابع عشر: الروح والنفس في القرآن 106

الباب الخامس: النظرية أمام الاعتراضات والأسئلة..... 112

الفصل الخامس عشر: الاعتراضات والردود — من الذي يُحاسَب؟..... 113

الفصل السادس عشر: الاعتراضات والردود — أين العدل؟..... 122

الفصل السابع عشر: أسئلة يسألها القارئ..... 130

الباب السادس: الأثر — كيف نعيش بهذه الفكرة..... 136

الفصل الثامن عشر: الخوف من الموت..... 137

الفصل التاسع عشر: فرصة واحدة..... 143

الفصل العشرون: العمل وما يبقى..... 152

كلمة أخيرة: إلى القارئ..... 160

خاتمة: خلاصة الكتاب..... 162

معجم المصطلحات..... 164

المصادر والمراجع..... 166

الفهارس..... 172

المقدمة

«قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم» (المؤمنون 113)

هل ينتظر الموتى؟

رجل مات قبل خمسة آلاف سنة. ورجل سيموت قبل قيام الساعة بدقيقة واحدة. ثم يُنفخ في الصور فيقومان معاً.

أيّهما انتظر أطول؟

الجواب الذي يسبق إلى الذهن أن الأول انتظر خمسة آلاف سنة والثاني انتظر دقيقة. وهذا الكتاب يقول: لا. لم ينتظر أحد منهما شيئاً. كلاهما أغمض عينه في الدنيا وفتحها في الآخرة، وليس بين الإغماضة والفتحة في شعوره إلا لمح البصر.

وليس هذا جوابي أنا. هو جواب المبعوثين أنفسهم كما يحكيه القرآن. يُسألون: «كم لبثتم في الأرض عدد سنين»، فيجيبون: «لبثنا يوماً أو بعض يوم». السؤال عن السنين، والجواب بعض يوم. ويتكرر هذا المعنى في سبعة مواضع من كتاب الله، كأنه يطرق باباً يريد منا أن نفتحه.

الفكرة في سطر

الموت يقطع إحساس الإنسان بالزمن. فالمدة بين الموت والبعث حقيقة في تقويم الأحياء، وليست شيئاً في تجربة الميت.

وسأسمّي الأول في هذا الكتاب الزمن الموضوعي: ما تعدّه الساعات والتقاويم. وأسمّي الثاني الزمن الذاتي: ما يجده الإنسان في نفسه من طول المدة وقصرها. والناس ماتوا في أزمنة موضوعية متباعدة، ويُبعثون في لحظة واحدة، ولا يحمل أحد منهم في نفسه أثراً لما بين اللحظتين.

لماذا أصدّق هذا؟

لثلاثة شهود، كلٌّ يشهد بقدر ما يعلم.

القرآن. لم يكتفِ بالخبر عن يوم القيامة، بل ساق تجربتين وقعتا في الدنيا. رجل أماته الله مئة عام ثم بعثه، فقال: لبثت يوماً أو بعض يوم. وفتية رقدوا في كهفهم ثلاثمئة سنة وتسعاً، فلما قاموا قالوا العبارة نفسها بحروفها. مئة سنة وثلاثمئة سنة، والجواب واحد.

التجربة. كل من دخل غرفة العمليات يعرف هذا. يُخدَّر، ثم يفتح عينه وقد مضت ساعات لا يجد منها في نفسه ثانية. لم ينتظر، ولم يملّ، ولا يذكر شيئاً من مشرط الجرّاح. فإذا كان هذا حال من غاب وعيه ودماغه حيّ يعمل، فكيف بمن مات؟

العلم. كنا نظن الزمن نهراً واحداً يجري على الجميع بالقدر نفسه. ثم أثبتت الفيزياء في القرن العشرين أن المدة بين حدثين تختلف باختلاف من يقيسها. ويعرف الأطباء أن الإحساس بالوقت يضطرب أو يغيب في التخدير.

القرآن يخبر، والتجربة تقرّب، والعلم يرفع الاستبعاد. وليس الثلاثة في مرتبة واحدة: الدليل هو الأول، والآخران شاهدان على الإمكان.

ماذا يتغير إذا صحّت الفكرة؟

تتغير أربعة أمور.

- **العدل يستقيم.** لا يطول انتظار أحد على أحد لمجرد أنه وُلد في قرن أسبق.
- **القيامة تقترب.** ليس بين أحدنا وبينها آلاف السنين، بل ما بقي من عمره.
- **الخوف يتبدل.** ما نخافه من وحشة القبر وطول المكث فيه لا يجده الميت. ومن فقدناهم لا ينتظرون في الظلام؛ لا يجدون طول المدة، واللقاء عندهم على بُعد طرفة عين.
- **الحياة تغلو.** إذا كان الموت نقطة لا مدة، فكل الزمن الذي نملكه هو ما قبله. لا مهلة بعده، ولا فسحة نستدرك فيها. وعمر الإنسان، طال أو قصر، مقدار محدود لا يُذكر إذا قيس بخلود لا ينتهي؛ لكنه المقدار الوحيد الذي يُصنع فيه ذلك الخلود. فالأولى أن نهتم بالآخرة، ولا ننسى نصيبنا من الدنيا.

ما أعد به القارئ وما لا أعد

هذا الكتاب لا يدّعي أنه رأى ما بعد الموت. ولا يجمع النصوص التي توافقه ويسكت عن التي تخالفه.

أعد القارئ بثلاثة أمور. أن أفرّق في كل موضع بين ما ثبت، وما ترجّح، وما يبقى إيماناً لا يبلغه برهان. وأن أعرض قول من يخالفني بأقوى ما يُقال فيه قبل أن أناقشه؛ وفي هذا الكتاب مواضع أخالف فيها قول الجمهور، وأولها مسألة عذاب القبر، وسأقول ذلك صريحاً حيث يقع. وأن أستعمل العلم شاهداً يقرّب المعنى، لا نصاً ثانياً أحمّله ما لا يحتمل. وفي آخر الكتاب فصل للاعتراضات، أعرضها فيه بألفاظ أصحابها.

وأطروحة الكتاب هي هذه: الميت لا يجد طول المدة بين موته وبعثه، طالت أو قصرت. وهي لا تتوقف على مسألة عذاب القبر، وقد قال بمعناها أعلام من أهل السنة في عصرنا. ثم لي فوقها ترجيح أخالف فيه جمهور العلماء: أن ما يكون عند الموت من سؤال وعرض حق، ثم لا يجد الميت بعده شيئاً حتى يُبعث، كأنه في رقدة، إلا من استثناه القرآن، وهم الشهداء، ويلحق بهم الأنبياء. ولا أنفي بذلك شيئاً مما ثبت من فتنة القبر وسؤاله. أعرض هذا الترجيح في موضعه بأدلته وأدلة من يخالفه. ومن لم يوافقني عليه فالكتاب قائم له بغيره، وتفصيل ذلك في الفصل الثاني عشر.

وأما المنهج فمأخوذ من القرآن نفسه، الذي لم يطلب منا أن نحفظ فحسب، بل سألنا مرة بعد مرة: أفلا يتدبرون؟ أفلا يتفكرون؟ وخصّ بالخطاب أولي الألباب. وهذا الكتاب

ثمرة تدبّر طويل: وقوف عند الآيات، وتتبّع للمنطق خطوة خطوة، حتى صارت الفكرة قناعة.

والقرآن صالح لكل زمان ومكان. ثوابته لا تُمسّ، وفهمنا له يتسع كلما اتسع علمنا؛ فكم من معنى لم يكن ليخطر على بال قبل أن يكشف العلم ما كشف. ولذلك مشيت إلى هذه الفكرة بشرطين: ألّا أكذّب شيئاً ثابتاً لأجلها، وألّا أزعزع بها إيمان أحد بالغيب. فما أطلبه فهمٌ أعمق لما نؤمن به، لا إيمانٌ أقل.

كيف يمضي الكتاب

يبدأ بالأساس: الله لا يجري عليه زمننا، وعدله وقدرته أصلان نفهم بهما النص. ثم يقرأ آيات النوم والموت واللبث والبرزخ والبعث آيةً آية. ثم يقف عند مسألة عذاب القبر: يبيّن الميزان الذي يزن به الأدلة، ويعرض أقوى ما عند من يثبتونه، ويناقشه، ويذكر من سبق إلى هذا الفهم. ثم يسأل ما الذي يموت في الإنسان: روحه أم نفسه. ثم يعرض الفكرة على الاعتراضات بألفاظ أصحابها. وفي الباب الأخير يسأل: كيف نعيش بهذه الفكرة؟

ويستشهد الكتاب في مواضعه بما يعرفه الطب عن النوم والتخدير، وبما عرفته الفيزياء عن الزمن، وبما قاله الفلاسفة والأدباء في الموت. وللعلم والفلسفة والأديان المقارنة بسطٌ أوسع أرجو أن تتسع له طبعة قادمة.

لمن وقته ضيق

فصول الكتاب مستقلة ما أمكن. فإن أردت الفكرة ودليلها في جلسة واحدة فاقرأ الفصل الخامس ثم الفصل السادس. وإن كان همّك مسألة عذاب القبر فاقرأ الفصول من التاسع إلى الثاني عشر، ثم الفصل الثالث عشر لتعرف من قال بهذا قبلنا. وإن جئت بسؤال أو اعتراض فابدأ بالفصل الخامس عشر. وإن كنت فقدت عزيزاً فابدأ بالفصل السابع عشر، ثم اقرأ الكلمة الأخيرة في آخر الكتاب. وإن أردت ما ينفعك في يومك قبل كل شيء فاذهب إلى الفصل التاسع عشر والفصل العشرين. وإن لم يكن عندك إلا خمس دقائق فاقرأ «خلاصة الكتاب» في آخره: عشر جمل تحمل الفكرة كلها.

وما في هذا الكتاب رأيٌ من باب التدبر والتفكر والاجتهاد، يحتمل الخطأ والصواب. فإن أصبتُ فمن الله، وإن أخطأتُ فمن نفسي.

فإن خرج القارئ من هذا الكتاب مقتنعاً فذاك. وإن خرج مخالفاً وقد فكّر في الموت والزمن أعمق مما كان يفكر، فقد بلغ الكتاب غايته أيضاً. والله أعلم، وهو المستعان.

الباب الأول

الله والزمان والعدل

قبل أن نسأل عن زمن الميت، نسأل عن الزمن نفسه: هل يجري على الله كما يجري علينا، وكيف يُقاس، وما الذي يقتضيه عدل الله.

الفصل الأول

الله لا يجري عليه زمننا

«هو الأول والآخر والظاهر والباطن» (الحديد 3)

هل يجري على الله ما يجري علينا من الزمان؟

من أين ننظر إلى الزمن؟

راكب القطار يرى الأشجار تجري إلى الوراء، والواقف على الرصيف يرى القطار هو الذي يجري. المشهد واحد، والذي اختلف هو الموقع.

كل سؤال عن الموت والبعث يخفي في داخله سؤالاً عن الزمن. حين نقول «مات قبل ألف سنة» أو «القيامة بعيدة»، فنحن نتكلم من موقع بعينه: موقع الأحياء الذين يعدّون الأيام. وننسى أن هذا الموقع ليس الوحيد.

هذا الفصل يضع الأساس الذي يقوم عليه الكتاب: الله لا يجري عليه زمننا، ولا تحكمه مقاييسنا. ومن هذا الأساس نفهم لماذا يخبر القرآن عن القيامة بصيغة الماضي، ونناقش قولاً يذهب إلى أن الآخرة قائمة الآن وننتقل إليها بالموت.

هل الزمان مخلوق؟

الزمن الذي نعرفه هو تعاقب الليل والنهار، والقرآن ينص على أنهما مخلوقان: «وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون» (الأنبياء 33).

ومن هنا قال المتكلمون في مسألة حدوث العالم إن الزمان نفسه مخلوق: حادث مع العالم، وليس قبل العالم زمان[1]. وهو قريب مما يقوله النموذج الكوني السائد في الفيزياء اليوم بلغته: الزمان والمكان نسيج واحد بدأ مع الكون.

ونذكر هذا فكرةً تستحق التأمل، لا أصلاً نقطع به. فالآية نصّت على خلق الليل والنهار، ولم تنصّ على خلق الزمان بهذا اللفظ؛ والمسألة مما اختلف فيه الفلاسفة والمتكلمون قديماً، وما زال فيها نظر. ولا يتوقف عليها شيء مما يأتي في هذا الكتاب.

ما نبني عليه

نبني على ما هو أثبت من ذلك وأقرب إلى لفظ القرآن. فهو يصف الله بما يُخرجه من تعاقب الزمن: «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم» (الحديد 3). الأول والآخر معاً، وما يكون أولاً وآخراً في آن لا يسير على خط الزمن كما نسير. ويخبر أن مقاييسه غير مقاييسنا: «وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون» (الحج 47).

والنتيجة: الماضي والحاضر والمستقبل أقسام لزمننا نحن. أما علم الله فمحيط بالكل إحاطة واحدة؛ ما كان وما يكون عنده سواء. نقول هذا ترجيحاً مستنبطاً من النص، لا نصاً قاطعاً؛ فالقرآن لم يصرّح به بهذا اللفظ.

لماذا يخبر القرآن عن القيامة بصيغة الماضي؟

في القرآن أخبار كثيرة عن الآخرة جاءت بالفعل الماضي، كأنها وقعت وانتهت:

- «ونُفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض» (الزمر 68).
- «وجيء يومئذ بجهنم» (الفجر 23).
- «وأزلفت الجنة للمتقين» (الشعراء 90).
- «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً» (الزمر 73).
- «أتى أمر الله فلا تستعجلوه» (النحل 1).

ولهذا تفسيران يتكاملان.

التفسير البلاغي: الماضي لتحقق الوقوع. هذا قول المفسرين وأهل اللغة. في تفسير الجلالين أن «أتى» جاءت بالماضي لأن الأمر واقع لا محالة[2]. ونقل البغوي عن ابن عرفة أن العرب تقول أتاك الأمر وهو بعدُ متوقَّع[3]. وآية النحل حاسمة في ذلك: قال «أتى» ثم نهى عن استعجاله، ولا يُستعجل ما وقع.

تفسيرنا: الخبر صادر عمّن لا يجري عليه الزمان. المتكلم هو الله، وما هو مستقبل عندنا حاضر في علمه. فجاء الخبر على ما هو عليه عند المخبِر، لا على ما هو عليه عند السامع. والتفسير البلاغي يقول إن الوقوع محقق، وتفسيرنا يقول لماذا هو محقق إلى هذا الحد.

هل الآخرة قائمة الآن؟

من الناس من قرأ صيغة الماضي قراءة أخرى: الآخرة عالم قائم الآن إلى جانب عالمنا، بدأت أحداثه فعلاً، والموت انتقال فوري إليه. فكل من مات دخل آخرته ساعة موته.

في هذا القول جزء صحيح، وجزء نتوقف فيه.

الصحيح: الجنة والنار موجودتان الآن. هذا قول أهل السنة، وخالف فيه المعتزلة فقالوا تُخلقان يوم الجزاء[4]. ومن أدلته في القرآن صيغة الإعداد: «أُعدّت للمتقين» (آل عمران 133)، «أُعدّت للكافرين» (البقرة 24). فوجود الدارين الآن لا ننكره، ولا يناقض شيئاً مما نقول.

ما نتوقف فيه: دخول الناس إليهما فرادى قبل البعث. ويُشكل عليه في القرآن ثلاثة أمور.

1. **اليوم الجامع.** «ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود» (هود 103). «قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم» (الواقعة 49-50).

الأولون والآخرون يجتمعون في ميقات واحد، ومن دخل فرداً ساعة موته لم يُجمع إلى ميقات.

2. **آيات اللبث.** المبعوثون يُسألون «كم لبثتم»، والسؤال يفترض مدة مضت ثم انتهت بالبعث، ومن انتقل فوراً لا لبث له. وتفصيل هذه الآيات في الفصل الخامس.

3. **القيد في الآيات نفسها.** «وجيء يومئذ بجهنم»؛ المجيء مقيّد بذلك اليوم. والنفخ في الصور يعقبه صعق من في السماوات ومن في الأرض، ونحن نراهما قائمتين.

ومع ذلك ففي هذا القول حدس صادق نحفظه: الميت لا ينتظر. وهذا ما نقوله نحن أيضاً، لكن من طريق آخر.

ثلاث جهات نظر للحدث الواحد

البعث حدث واحد، يُنظر إليه من ثلاث جهات، ولكل جهة زمنها.

عند الله هو حاضر في علمه، كأنه وقع؛ ولهذا جاء الخبر بالماضي: «أتى أمر الله»، «ونُفخ في الصور». **وعند الأحياء** هو مستقبل لا يُعلم موعده: «يسألونك عن الساعة أيان مرساها»، «فلا تستعجلوه». **وعند الميت** هو عقب موته مباشرة: «لبثنا يوماً أو بعض يوم»، «من بعثنا من مرقدنا».

وهذه الجهات الثلاث في صورة واحدة:

حدث واحد، وثلاث جهات للنظر

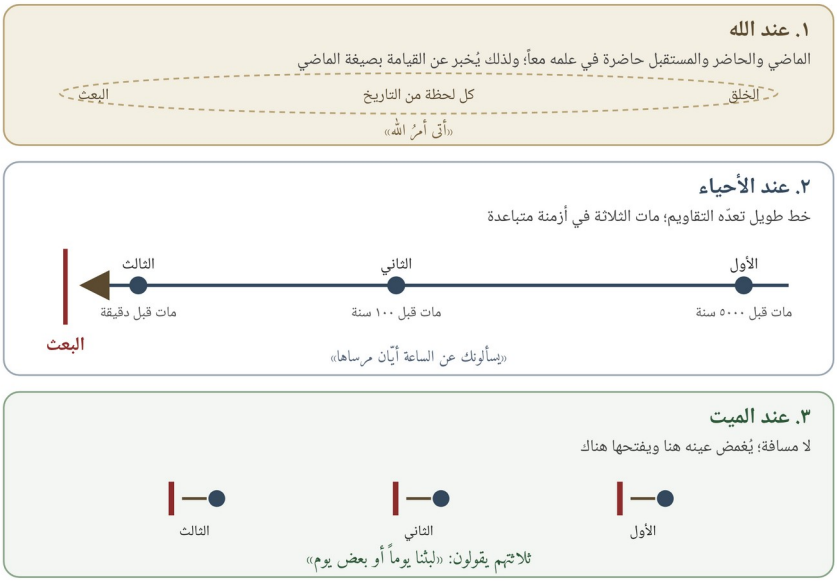

بهذا تجتمع النصوص التي تبدو متعارضة. الساعة بعيدة في تقويمنا، قريبة من كل واحد منا بقدر ما بقي من عمره، واقعة في علم الله. ولا تناقض؛ فالاختلاف في الجهة لا في الحدث.

وعلى هذا الأساس يمضي الفصل التالي إلى المقاييس: اليوم الذي هو كألف سنة، والأمر الذي هو كلمح البصر.

هوامش الفصل الأول

1. يُنظر: الغزالي، «تهافت الفلاسفة»، المسألة الأولى في قِدم العالم؛ وابن رشد، «تهافت التهافت»، في الموضع نفسه.
2. تفسير الجلالين، النحل 1.
3. البغوي، معالم التنزيل، النحل 1.
4. شرح عقيدة أهل السنة في خلق الجنة والنار؛ وبحث محمد النويهي في الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة، جامعة آل البيت 2013.

الفصل الثاني

اليوم عند الله واليوم عندنا

«وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون» (الحج 47)

كيف يكون يومٌ كألف سنة، وأمرٌ كلمح البصر؟

مقياسان لليوم

الساعة التي تقضيها منتظراً عند باب غرفة العمليات غير الساعة التي تقضيها مع صديق قديم. هي واحدة على الحائط، وليست واحدة في النفس. والقرآن يذهب أبعد من ذلك: يخبرنا أن اليوم نفسه ليس مقداراً واحداً.

يذكر القرآن لليوم مقدارين لا يشبهان يومنا، ولا يشبه أحدهما الآخر.

في سورة الحج، والكافرون يستعجلون العذاب: «وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون» (الحج 47). وفي سورة السجدة، في تدبير الأمر بين السماء والأرض: «ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون» (السجدة 5). وفي سورة المعارج،

في عروج الملائكة: «تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» (المعارج 4).

في هذه الآيات ثلاث دلالات.

- **المقياس منسوب إلى العادّ.** القرآن يقيّد: «مما تعدون». فالألف ألفٌ بحسابنا نحن، وهو يوم واحد بحساب آخر. هذا تصريح بأن المدة ليست واحدة لكل من يقيسها.
- **النسبة نفسها تتغير.** مرة ألف ومرة خمسون ألفاً. فليس ثمة «سعر صرف» ثابت بين زمنين؛ المقياس يتبع المقام والحدث.
- **الطول والقصر متقابلان.** اليوم الواحد يتسع لألف سنة، والقرون الطويلة تنطوي في بعض يوم. وهذا ما تفصّله آيات اللبث في الفصل الخامس.

وللمفسرين في الجمع بين الألف والخمسين ألفاً أقوال مبسوطة في كتب التفسير[1].

كلمح البصر

في مقابل اليوم الطويل، يصف القرآن وقوع الآخرة بأقصر ما يعرفه الإنسان من الزمن.

- «وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب» (النحل 77).
- «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر» (القمر 50).
- «إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون» (يس 53).

- «فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة» (النازعات 13-14).
- «لا تأتيكم إلا بغتة» (الأعراف 187).

الكلمات المتكررة: واحدة، لمح، بغتة، «فإذا هم». لا تدرّج ولا مراحل ولا انتظار. صيحة واحدة، ثم الناس قيام. وقوله «أو هو أقرب» يجاوز أقصر زمن ندركه إلى ما دونه، كأن الحدث بلا مدة أصلاً.

وهذا من جهة القدرة مفهوم: «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» (يس 82). القادر الذي لا يجري عليه الزمان لا يحتاج إلى زمان ليفعل.

لمح البصر من جهة الميت

للآية وجه آخر يظهر من الجهة الثالثة التي ذكرناها في الفصل السابق: جهة الميت. فإذا كان لا يجد من المدة بين موته وبعثه شيئاً، فآخر لحظة في دنياه موصولة بأول لحظة في آخرته، والساعة تأتيه كلمح البصر، مات قبلها بيوم أو بعشرة آلاف سنة.

وبهذا يُفهم ما حيّر الناس قديماً: كيف يقول القرآن «اقتربت الساعة» (القمر 1) و«اقترب للناس حسابهم» (الأنبياء 1) وقد مضى على نزولها أربعة عشر قرناً؟ الجواب: الحساب قريب من كل إنسان بقدر ما بقي من عمره، لا بقدر ما بقي من عمر الدنيا. ليس بين أحدنا وبين القيامة إلا أن يموت.

هذا استنتاج منّا مبني على أطروحة الكتاب، لا تفسير منقول للآية، فالمفسرون يحملون «كلمح البصر» على سرعة الإيجاد بالقدرة. والوجهان لا يتعارضان.

ماذا يقول العلم؟

العلم لا يتكلم عن القيامة. لكنه هدم في القرن العشرين الفكرة التي كانت تجعل هذه الآيات عسيرة التصور: فكرة الزمن الواحد الذي يجري على الجميع بالقدر نفسه.

المدة تتبع الراصد. في النسبية، الزمن بين حدثين يختلف باختلاف حركة من يقيسه وموضعه من الجاذبية. وهذا ثابت بالقياس، وتُصحَّح به ساعات الأقمار الصناعية كل يوم.

على حدّ الزمن. كلما اقتربت سرعة المسافر من سرعة الضوء قلّ الزمن الذي يمر عليه، بالقياس إلى من بقي على الأرض، واقترب من الصفر كلما اقترب منها. ولهذا يقول بعض الفيزيائيين تقريباً للمعنى إن الضوء لا يمر عليه زمن، وإن كان الضوء نفسه لا يحمل ساعة تُقرأ. رحلة تستغرق ملايين السنين في حسابنا، وتكاد لا تكون شيئاً في حساب من يسافر على حدّ تلك السرعة.

لمح البصر نفسه. طرفة العين تستغرق أعشاراً من الثانية، وهي أقصر ما كان الإنسان يدركه من الزمن بحسّه[2]. وقوله «أو هو أقرب» يفتح ما دونها، وقد عرف العلم اليوم أزمنة أقصر منها بملايين المرات.

حدود هذه المقابلة

- النسبية تثبت أن المدة ليست مطلقة. لا تثبت شيئاً عن الملائكة ولا عن الموتى.
- انقطاع الزمن عن الميت سببه عندنا انقطاع الوعي، لا السرعة. فالفيزياء هنا شاهد على الإمكان لا أكثر.
- نتجنب الحساب الشائع في كتب الإعجاز الذي يستخرج سرعة الضوء من آية السجدة؛ فهو قائم على اختيارات حسابية متكلفة، ويضرّ الكتاب أكثر مما ينفعه[3].

عرفنا أن الزمن ليس واحداً، وأن الله لا يجري عليه زمننا. ويبقى سؤال قبل أن نصل إلى الميت: لماذا لا بد من يوم حساب أصلاً؟

هوامش الفصل الثاني

1. تُنظر تفاسير الطبري والرازي والقرطبي وابن عاشور عند آية السجدة 5 وآية المعارج 4.
2. تُقدَّر طرفة العين في كتب الفسيولوجيا بما بين عُشر الثانية وأربعة أعشارها.
3. ولذلك لا يعتمد هذا الكتاب على شيء من هذه الحسابات.

الفصل الثالث

العدل والقدرة

«ونضع الموازين القسط ليوم القيامة» (الأنبياء 47)

لماذا لا بد من يوم حساب، وماذا يقتضي العدل قبله؟

صفتان نقرأ بهما النص

كل ما في هذا الكتاب عن الموت والبعث قائم على صفتين من صفات الله: أنه قادر، وأنه عادل. القدرة تجيب عن سؤال: هل يمكن البعث؟ والعدل يجيب عن سؤال آخر: لماذا لا بد منه؟ وبالصفتين معاً نفهم كيف يكون ما بين الموت والبعث.

القدرة: هل يمكن؟

أنكر المنكرون البعث من جهة واحدة: استبعدوه. «وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً» (الإسراء 49). فجاء الجواب يرفع الاستبعاد إلى أقصاه: «قل كونوا حجارة أو حديداً * أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة» (الإسراء 50-51).

الحجة واحدة مهما تبدّلت المادة: من أنشأ أول مرة يعيد. وعلى هذا لا فرق عند القدرة بين من دُفن، ومن احترق، ومن تفرّق جسده في البحر أو الهواء. وأدلة القرآن العقلية على البعث مبسوطة في الفصل الثامن.

العدل: لماذا لا بد منه؟

الحساب المفتوح

تكاد الأديان جميعها، على تباينها في الشكل والرؤية، وتكاد الثقافات كلها، على تباعد منابعها، تتفق على مبدأ أصيل: أن لكل فعل أثراً، ولكل سلوك ثمناً. قد يتأخر الثمن، وقد يأتينا من حيث لا نحتسب، وقد يتجلّى في هيئة لا نعرفها، لكنه لا يُلغى.

لكن من ينظر في الدنيا وحدها يرى غير ذلك. ظالم يموت على فراشه مكرَّماً، ومظلوم يموت مقهوراً لم ينصفه أحد. فإن كان لكل فعل ثمن، وكانت الدنيا لا تستوفي الأثمان كلها، فأين يُستوفى الباقي؟

جواب القرآن

القرآن يجعل هذا السؤال نفسه دليلاً. «أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجّار» (ص 28). «أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون» (القلم 35–36). «وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتُجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يُظلمون» (الجاثية 22).

والمعنى: لو لم يكن يوم يُفصل فيه لاستوى الفريقان، والتسوية بينهما ظلم، والله لا يظلم. «إن الله لا يظلم الناس شيئاً» (يونس 44).

ولا تقف سورة القلم عند السؤال. تمضي بعده تطالب صاحب الدعوى بدليله: «أم لكم كتاب فيه تدرسون * إن لكم فيه لما تخيّرون * أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون» (القلم 37-39). والمعنى عند الطبري: هل عندكم كتاب منزل من عند الله جاءكم به رسول، تقرؤون فيه أن لكم ما تختارون؟ ونقل عن ابن زيد أن «تدرسون» تقرؤون. وعند ابن كثير: هل بأيديكم كتاب من السماء تدرسونه وتتداولونه، فيه حكم مؤكد بما تدّعون؟[1].

فالذي يزعم أن المجرم والمسلم يستويان عند الله، أو أن له عنده ما يتمنى، يُسأل سؤالين: أين الكتاب الذي قرأت فيه ذلك؟ وأين العهد الذي أخذته على الله؟ وليس عنده أحدهما. فالحكم بالتسوية حكم بلا علم، وهذا معنى «ما لكم كيف تحكمون».

وفي الإنسان نفسه شاهد على ذلك. تردّده قبل الذنب وندمه بعده يدلان على أن في داخله ميزاناً لم يضعه هو. وهذا الميزان يطلب حساباً يطابقه.

ما وزن هذه الحجة؟

نزنها بميزان عادل: لا نعطيها أكثر من حقها.

الفيلسوف الألماني كانط لم يجعل الآخرة نتيجة برهان نظري. جعلها مما يفترضه العقل العملي حتى يستقيم التناسب بين الفضيلة والسعادة. ويعترض الناقد بأن التمنّي لا يصنع واقعاً، وأن شوقنا إلى العدل قد يكون حاجة فينا لا خبراً عن العالم. ويجيب المؤمن بأن تفسير منشأ الشوق لا يحسم صدق ما يشتاق إليه.

فالحكم المنصف أن الحجة ترجيحية مشروطة. عند من يؤمن بإله عادل هي لازمة: العدل لا يتم إلا بيوم حساب. وعند من لا يسلّم بذلك هي قرينة تستحق النظر، لا برهان قاطع. ونحن نخاطب بها الأول إلزاماً، والثاني دعوةً إلى التفكر.

ما يقتضيه العدل فيما بين الموت والبعث

هنا تلتقي هذه الصفة بأطروحة الكتاب. فإذا كان الحساب عدلاً، ترتب على ذلك ثلاثة أمور.

الأول: الجزاء الأوفى مؤجَّل إلى يوم الحكم. وهنا سؤال يسأله كل عاقل: كيف يكون عذاب قبل حساب؟ في عدل البشر لا يُعاقَب أحد قبل أن يُحاكَم ويسمع ما عليه. والقرآن يرتّب الأمر على هذا: كتاب يُقرأ، وميزان يوضع، ثم جزاء. «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً» (الأنبياء 47). «اليوم تُجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم» (غافر 17). والكتاب يُعطى صاحبه فيقرؤه أولاً ثم يُجزى.

ولا نقول إن الله لا يعاقب في الدنيا؛ فقد أغرق قوم نوح، وذكر «العذاب الأدنى». لكن القرآن يعلّل عذاب الدنيا بقوله «لعلهم يرجعون» (السجدة 21): هو تنبيه لمن بقي له باب رجوع. أما بعد الموت فلا رجوع، فكل ما بعده من الجزاء الأخير، والقرآن يربط الجزاء الأخير بيومه: «وإنما تُوفَّون أجوركم يوم القيامة» (آل عمران 185). ولا يحاسب الله ليعلم ما لم يكن يعلم؛ يحاسب ليقوم العدل ظاهراً تراه كل نفس، فلا تُظلم شيئاً.

ولمن يثبت عذاب القبر جواب نذكره إنصافاً: أن الله يعلم حال عبده بلا حساب، وأن ما في القبر مقدّمة للجزاء لا تمامه. والعلم لا خلاف فيه. لكن القرآن جعل للجزاء يوماً وميزاناً وكتاباً يُقرأ؛ فالأقرب إلى ترتيبه أن يكون الجزاء بعد ذلك كله. وهذا ترجيح منّا، وتفصيله في فصول عذاب القبر.

الثاني: لا يطول الانتظار على أحد بلا ذنب. لو كان الموتى ينتظرون شاعرين، لانتظر من مات في أول الدهر آلاف السنين، وانتظر من مات قبيل الساعة يوماً. وفرق الانتظار هذا لا يرجع إلى عمل أحدهما؛ يرجع إلى تاريخ ميلاده. وهو في لغة القضاء حبس طويل قبل المحاكمة، يطول على هذا ويقصر على ذاك بلا سبب منهما. وأطروحة الكتاب ترفع الإشكال من أصله: لا أحد منهما يجد المدة. ويكفي في هذا اللازم أن الميت لا يجد طول المدة، أثبتنا له إدراكاً في قبره أم لم نثبت؛ فهو يستقيم على كل قول.

الثالث: يُحاسَبون معاً. «قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم» (الواقعة 49–50). يوم واحد للجميع، لا سبق فيه لقديم على حديث.

العلم والاختيار

يُعترض على العدل بأن الله يعلم ما سيفعله العبد قبل أن يفعله، فكيف يحاسبه عليه؟ وجواب ذلك يبدأ بالتفريق بين أربعة أشياء يخلط بينها الناس[2].

العلم أن يُعلم ما سيقع، وهو لا يرفع المسؤولية؛ فالعلم بالحدث ليس إحداثه. **والتقدير** أن تجري الأمور على أسباب ومقادير، وهو لا يرفعها أيضاً؛ ففعل العبد نفسه من جملة الأسباب. **والحتمية** أن تقع النتيجة مهما فعل الإنسان، ولم يقل بها القرآن في أفعال التكليف. **والإكراه** أن يُحمل الإنسان على ما لا يريد، وهو وحده الذي يرفع المسؤولية؛ ولهذا رفع القرآن المؤاخذة عن المكرَه (النحل 106).

والقرآن ينفي الإكراه عن الله، ويعذر به بين الناس.

ونحن نؤمن بأن علم الله سابق، كما نطقت به النصوص في القدر. لكن سبقه ليس كسبق علم من يتوقع منا؛ فقد تقرّر في الفصل الأول أن الله لا يجري عليه زمننا. علمه إحاطة بما يختاره العبد حين يختاره، كعلم من يرى لا كتنبؤ من يتوقع. والرؤية لا تُجبر المرئي.

وبقية الاعتراضات على العدل، من تفاوت الظروف وغيره، مع أجوبتها في الفصل السادس عشر.

ما لا ندّعيه

- **لا ندّعي أن برهان العدل يُلزم كل أحد.** هو لازم لمن آمن بإله عادل، وقرينة عند غيره.
- **ولا ندّعي الإحاطة بالقدر.** نفينا ما نفاه القرآن، وهو الإجبار والظلم. وكيفية اجتماع علم الله وتقديره مع اختيار العبد اختلف فيها المتكلمون قديماً، وما زال الخلاف فيها قائماً.
- **ومسألة دوام العقاب** خارج موضوع هذا الكتاب. فيها خلاف موثق في كتب الكلام والتفسير، وموضوعنا ما قبل الحساب لا ما بعده.

عرفنا أن زمننا لا يجري على الله، وعرفنا ما يقتضيه عدله. فماذا يقول القرآن عن الميت نفسه؟ نبدأ بما يعرفه كل واحد منا كل ليلة.

هوامش الفصل الثالث

1. الطبري، «جامع البيان»؛ وابن كثير، «تفسير القرآن العظيم»؛ والبغوي، «معالم التنزيل»: القلم 37–39.
2. في التفريق بين العلم والإجبار تُنظر كتب الكلام في مبحث القضاء والقدر. وحجة كانط في «نقد العقل العملي» (1788)، الكتاب الثاني (الجدل)، في مسلّمتَي خلود النفس ووجود الله.

الباب الثاني

القرآن — موت ثم بعث ثم حساب

نقرأ في هذا الباب آيات النوم والموت واللبث والبرزخ والبعث آيةً آية، ونرسم منها الطريق كله من الموت إلى الحساب.

الفصل الرابع

الموت والنوم

«وهو الذي يتوفّاكم بالليل... ثم يبعثكم فيه» (الأنعام 60)

ماذا يعلّمنا نوم كل ليلة عن الموت؟

آية للمتفكرين

«الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيُمسك التي قضى عليها الموت ويُرسل الأخرى إلى أجل مسمّى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (الزمر 42).

خُتمت الآية بالدعوة إلى التفكر. فالقرآن يضع أمامنا شيئاً نعرفه كل ليلة، ويقول: انظروا فيه تفهموا ما لا تعرفونه.

فعل واحد وحالان

الآية تجمع الموت والنوم في فعل واحد: التوفّي. والفرق بينهما في آخر الآية فقط: نفس تُمسَك، ونفس تُرسَل.

وعلى هذا سمّى ابن كثير الأمرين الوفاة الكبرى والوفاة الصغرى[1]. وقال القرطبي في آية الأنعام إن النوم قبضٌ للنفوس التي بها التمييز، وليس موتاً على الحقيقة[2]. فالذي يُقبض في النوم هو ما به يعي الإنسان ويميّز. وهذا يوافق ما سيأتي في الفصل الرابع عشر: النفس هي الذات الواعية، وهي التي نُتوفّى.

والآية الأخرى تكمل الصورة: «وهو الذي يتوفّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمّى» (الأنعام 60). النوم توفٍّ، واليقظة بعث. ولفظ البعث هو الذي سُمّي به إيقاظ أصحاب الكهف، وهو الذي يُسمّى به قيام الموتى.

ماذا يجد النائم من الزمن؟

قبل النوم، مثال من اليقظة يضربه مصطفى محمود في كتابه «لغز الموت». طلاب في قاعة امتحان، والساعة في يد المراقب تشير إلى زمن واحد. من لم يكتب شيئاً بعدُ يجد الوقت أقصر من نصف دقيقة، ومن فرغ من الإجابة يجده أطول من نصف يوم. ساعة واحدة، ولكل واحد زمنه. ويخلص إلى أن الزمن ليس شيئاً منعزلاً عنا تحتويه ساعة اليد، بل شيء يلابسنا[3].

وإذا كان هذا في اليقظة، فهو في النوم أظهر. وللنوم حالان يعرفهما كل أحد.

نوم بلا أحلام. يغمض النائم عينه ثم يفتحها وقد مضت ساعات. لا يجد منها شيئاً، ولا يستطيع أن يقدّرها إلا بالنظر إلى الساعة أو الضوء. آخر ما يذكره قبل النوم موصول بأول

ما يجده بعده. ويصف مصطفى محمود، وهو طبيب، هذه المرحلة من النوم بأنها «ليس فيها وعي ولا زمن ولا مكان»، وأن الساعات العشر تمرّ فيها كلمح الطرف. وله فيها تشبيه لا يُنسى: كأن خيط العمر قُطع ثم وُصل، كما يُقطع شريط التسجيل ويُلصق طرفاه فيتصل الكلام ولا يظهر موضع القطع.

نوم فيه أحلام. يجد فيه النائم صوراً وأحداثاً، وقد يظن أنه عاش وقتاً طويلاً في لحظات، أو العكس. فزمن الحلم نفسه لا يطابق زمن الساعة.

وفي الحالين نتيجة واحدة: الزمن الذي تعدّه الساعة ليس هو ما يجده النائم.

اعتراض: النائم يحلم، فلعل الميت كذلك

هذا أقوى ما يُعترض به على قياس الموت على النوم. يقال: النائم لا ينقطع وعيه كله؛ يحلم ويفرح ويتألم في منامه. فلعل الميت في برزخه كالحالم، يجد نعيماً أو عذاباً.

والجواب من ثلاثة وجوه.

الأول: الآية فرّقت بين الحالين. النفس النائمة مرسَلة، والميتة ممسَكة. فالموت أتمّ قبضاً من النوم، لا مثله. وإذا كان القبض الأخف يُذهب أكثر الوعي، فالقبض الأتم أولى أن يُذهبه كله.

الثاني: الحلم عمل دماغ حيّ. الأحلام تقع والدماغ يعمل، وتزول أو تقلّ إذا عُطّل عمله بالتخدير العميق. والمخدَّر أقرب إلى الميت من النائم: لا يحلم في الغالب، ولا يجد من الساعات شيئاً حين يفيق[4]. والميت قد توقف دماغه كله.

الثالث: التجربة القرآنية. أصحاب الكهف لبثوا ثلاثة قرون، ولم يحكِ القرآن عنهم حلماً ولا شعوراً، قاموا يقولون: يوماً أو بعض يوم. وصاحب القرية مات مئة عام وقال مثلهم.

وهذا الاعتراض هو ما يستند إليه من يثبت للميت إدراكاً. ومن أخذ به لزمه مع ذلك أن الميت، كالحالم، لا يجد طول المدة. وهي أطروحة الكتاب نفسها، كما ذُكرت في المقدمة وتُفصَّل في الفصل الثاني عشر.

«الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»

قول مشهور يُنسب إلى علي بن أبي طالب، وليس آية ولا حديثاً مرفوعاً[5]. وظاهره أن الموت يقظة، لا رقدة؛ فكأنه يعارض ما نقول.

ولا تعارض عند التأمل. القول يتكلم عن الغفلة لا عن الوعي: الناس في الدنيا غافلون عن الحقيقة، وتنكشف لهم بعد الموت. والقرآن يذكر هذا الانكشاف بعينه، ويجعله يوم البعث: «ونُفخ في الصور ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» (ق 20–22). الغطاء يُكشف بعد النفخ في الصور.

ومن جهة الميت لا فرق بين القولين. إذا كان لا يجد ما بين موته وبعثه، فانتباهه يوم البعث هو عنده عقب موته مباشرة. مات فانتبه.

الدعاء الذي نقوله كل صباح

في المأثور أن يقول المستيقظ: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور[6]. سمّى النوم موتاً، واليقظة حياة، وذكّر بالنشور. فكل صباح تمرين صغير على القيامة: قبضٌ، ومدة لا تُحسّ، وبعث.

الزمن الذي لا نتذكره

هل الزمن الذي لا نتذكره زمن لم نشعر به؟ ليس بالضرورة. فالطب يفرّق بين ثلاثة أشياء نخلط بينها: الوعي، والذاكرة، والإحساس بالزمن. وفي أبحاث التخدير اليوم أن الدواء لا يُذهب الوعي دائماً ذهاباً تاماً، وأن غياب التجربة بعده قد يكون أحياناً أثراً للنسيان[7]. وفي تجربة على نائمين أُوقظوا مراراً في الليل، تبيّن أن النائم يقدّر ما مضى بلا ساعة، وإن أخطأ في تقديره[8]. والذين أُنعشوا بعد توقف قلوبهم ذكر بعضهم مدركات من وقت الإنعاش، لكنهم عادوا ولم يموتوا الموت الأخير، ولا يُعرف متى تكوّنت ذكرياتهم[9].

فما الذي يبقى لنا من مثال النوم والتخدير؟ يبقى أمر واحد ثابت: من يفيق لا يجد الساعات التي مضت، كان فيها شيء أو لم يكن. يفتح عينه فيصل آخر ما رآه بأول ما

يراه. وهذا بعينه ما يقوله المبعوث. فالكتاب لا يتكلم عما يجري للميت وهو غائب؛ يتكلم عما يجده من المدة حين يقوم.

حدود القياس

- النوم مثال ضربه القرآن، فالقياس عليه مأذون به. لكن المثال يقرّب ولا يطابق: النائم حيّ يتنفس، والميت ليس كذلك.
- ما نأخذه من النوم أمر واحد: أن النفس تُقبض فلا تجد المدة. ولا نأخذ منه أن الميت يحلم، ولا أنه يستيقظ قبل البعث.
- والاستثناء باقٍ كما هو: الشهداء أحياء عند ربهم بنص القرآن.

النوم مثال، والقرآن لم يكتفِ بالمثال. سأل المبعوثين أنفسهم: كم لبثتم؟ وجوابهم قلب هذا الكتاب.

هوامش الفصل الرابع

1. تفسير ابن كثير، الأنعام 60، وفيه ذكر الوفاتين الكبرى والصغرى وإحالة على آية الزمر.
2. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الأنعام 60.
3. مصطفى محمود، «لغز الموت»، دار المعارف، فصل «الزمن» (ص 19–20) وفصل «النوم» (ص 43–44). وفي ص 73 منه أن النوم ثم اليقظة نموذج مصغَّر للموت ثم البعث.
4. في أثر أدوية التخدير في إدراك الزمن: J. J. Wehrman, C. C. Chung, R. D. Sanders, «Anaesthetics and time perception: A review», *Quarterly Journal of*

Experimental Psychology, 2022، وقد جمعت ستاً وثلاثين دراسة. وفي أثر التخدير في الساعة البيولوجية، في تجربة أُجريت على نحل العسل لا على البشر: J. F. Cheeseman et al., «General anesthesia alters time perception by phase shifting the circadian clock», *PNAS* 109 (2012): 7061–7066.

5. ليس بحديث؛ يُعزى إلى علي بن أبي طالب، وعُزي إلى سهل التستري. يُنظر: السخاوي، «المقاصد الحسنة»، والعجلوني، «كشف الخفاء»، في حرف النون.

6. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، من حديث حذيفة بن اليمان (6312).

7. K. O. Pryor, Y. Jiang, J. W. Sleigh, «Anesthetic Amnesia: The Forgotten Importance of Forgetting?», *Anesthesiology* (2025)، وفيه أن أثر أدوية التخدير في الذاكرة ينفصل عن أثرها في الوعي.

8. S. Aritake et al., «Time estimation during nocturnal sleep in human subjects», *Neuroscience Research* 49 (2004): 387–393.

9. S. Parnia et al., «AWAreness during REsuscitation – II: A multi-center study of consciousness and awareness in cardiac arrest», *Resuscitation* 191 (2023): 109903.

الفصل الخامس

آيات اللبث — الدليل المركزي

«كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار» (يونس 45)

أيّ مدة هذه التي يستقصرها المبعوثون جميعاً؟

سؤال واحد وسبعة أجوبة

في سبعة مواضع من القرآن يُسأل المبعوثون، أو يتساءلون فيما بينهم، عن المدة التي لبثوها. وفي المواضع السبعة يأتي الجواب واحداً في معناه: مدة لا تكاد تُذكر.

أطول تقدير نطق به أحدهم عشر ليالٍ، وقد ردّه أعدلهم رأياً إلى يوم واحد: «يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً» (طه 103–104). وفي سورة المؤمنون يُسألون عن «عدد سنين» فيجيبون: «لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين» (112–113). وفي الروم يقسمون أنهم «ما لبثوا غير ساعة» (55).

ويصفهم القرآن من خارجهم بالوصف نفسه: «كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار» (يونس 45)، «لم يلبثوا إلا ساعة من نهار» (الأحقاف 35)، «لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها» (النازعات 46)، «وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً» (الإسراء 52).

هذا التكرار ليس عرضاً. القرآن لا يعيد معنى سبع مرات في سبع سور إلا ليلفت إليه أولي الألباب. والسؤال الذي ينبني عليه هذا الكتاب يبدأ من هنا: أيّ مدة هذه التي يستقصرونها؟ ولماذا يستقصرونها جميعاً على اختلاف أزمانهم؟

لبث الدنيا أم لبث القبر؟

اختلف المفسرون في المدة المسؤول عنها على قولين مشهورين، وقد حكاهما القرطبي معاً في آية المؤمنون من غير ترجيح[1].

القول الأول: هي مدة الحياة الدنيا. وعليه ابن كثير والبغوي والسعدي في آية الروم[2]. والمعنى عندهم أن القوم لما عاينوا الآخرة استقلّوا أعمارهم في جنبها، أو أنهم ذهلوا من الهول فنسوا.

القول الثاني: هي مدة المكث في القبور. وهو قول شيخ المفسرين الطبري في آية الروم، وقبله مقاتل بن سليمان، وبه أخذ الجلالان، واختاره ابن عطية، ونصره من المتأخرين ابن عاشور فجعل المدة ما بين الدفن والبعث[3]. والمفسر الواحد قد يختلف اختياره من موضع إلى موضع؛ فالطبري نفسه، وقد فسّر آية الروم بمدة القبور، حمل آيات أخرى من

السبع على مدة الدنيا. فالخلاف حقيقي في كل موضع، ولا ندّعي أن أحد القولين إجماع. وذكر البيضاوي الاحتمالين وزاد ثالثاً[4].

وللقول الأول وجه من السياق لا يُستهان به. فآيات المؤمنون يعقبها قوله تعالى «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً» (115)، وهو كلام في الغاية من الحياة الدنيا، فيناسبه أن يكون السؤال عن العمر. واللفظ نفسه لا يحسم الأمر؛ فالقرآن يستعمل «اللبث» للمكث في الحياة: «ولبثت فينا من عمرك سنين» (الشعراء 18)، وللمكث في الموت: «كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم» (البقرة 259)، وللمكث في الرقاد: «ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين» (الكهف 25). فالفيصل هو السياق والقرائن، لا الكلمة وحدها.

ونحن نختار القول الثاني. لا لأنه يوافق ما نذهب إليه فحسب، بل لأن القرآن نفسه يشهد له من خمسة وجوه.

خمس قرائن من القرآن

القاعدة التي نلتزمها في هذا الكتاب أن القرآن يفسر بعضه بعضاً. وإذا عرضنا آيات اللبث على أخواتها ظهر أن المدة المستقصرة هي مدة الموت.

القرينة الأولى: جواب أهل العلم

حين يقسم المجرمون أنهم ما لبثوا غير ساعة، يصحّح لهم الذين أوتوا العلم والإيمان: «لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث» (الروم 56). التصحيح يربط اللبث

بيوم البعث. ولبثٌ ينتهي عند البعث ينسجم مع لبث الموت، أما لبث الدنيا فينتهي عند الموت. ولا نقول إن هذه الآية تحسم وحدها بداية المدة، فقد فُسّر «في كتاب الله» بما سبق في علم الله وكتابه من مدة إلى البعث، وذكر الطبري فيها معنى يمتد من خلقهم إلى بعثهم. فالآيتان تُقرآن معاً: الأولى فسّرها الطبري صريحاً بلبثهم في قبورهم، والثانية تنسجم مع ذلك ولا تقطع به.

القرينة الثانية: سياق سورة المؤمنون

السؤال «كم لبثتم في الأرض» يأتي بعد قوله تعالى «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» (100) باثنتي عشرة آية، وبينهما النفخ في الصور. فالحديث متصل من الموت إلى البعث. ولفظ السؤال «في الأرض» لا «في الدنيا»، والأرض ظهرها للأحياء وبطنها للأموات؛ ولذلك قال البيضاوي: أحياءً أو أمواتاً في القبور[5]. واللفظ وحده لا يحسم؛ فالقرآن يقول «في الأرض» عن الأحياء أيضاً، والطبري يميل في هذا الموضع إلى مدة الدنيا. فالقرينة هنا في اتصال السياق من البرزخ إلى السؤال، لا في اللفظ.

القرينة الثالثة: لحظة الخروج

«يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً» (الإسراء 52). الظن هنا مقرون بالاستجابة للدعوة، أي بلحظة القيام من القبور. ومن يقوم من مرقده فيظن أنه لبث قليلاً الأقرب أنه يقدّر الرقدة التي قام منها. وهي قرينة مساندة؛ فلا يمتنع أن يكون الظن استقلالاً للعمر كله عند البعث.

القرينة الرابعة: العبارة نفسها في موضعين لا خلاف فيهما

الرجل الذي أماته الله مئة عام قال حين بُعث: «لبثت يوماً أو بعض يوم» (البقرة 259). وأصحاب الكهف قالوا بعد ثلاثمئة سنة وتسع: «لبثنا يوماً أو بعض يوم» (الكهف 19). هي عبارة المبعوثين يوم القيامة بحروفها، وفي الموضعين لا يختلف أحد أن المدة مدة الموت أو الرقاد لا مدة العمر. فحملُها في موضعها الثالث على ما حُملت عليه في الموضعين أولى من صرفها عنه. والتجربتان ليستا حالة واحدة، فالأولى موت والثانية رقاد، والذي يجمعهما أن المدة الطويلة في الخارج لم يقابلها عند صاحبها علم بطولها ولا إحساس به. والفصل السادس مخصص لهاتين التجربتين.

القرينة الخامسة: دهشة المبعوثين

«قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا» (يس 52). سمّوا ما كانوا فيه مرقداً، وسألوا سؤال من أُيقظ فجأة لا يدري ما جرى. هذا لسان نائم أفاق، لا لسان من قضى القرون ينتظر. ولفظ «المرقد» وحده لا ينفي كل ما يكون في القبر، كما يأتي من كلام ابن كثير.

وهكذا فهمها السلف. نقل ابن كثير عن أُبيّ بن كعب ومجاهد والحسن وقتادة أنهم «ينامون نومة قبل البعث»، وروى الطبري عن قتادة أن هذه الرقدة ما بين النفختين، وعبارة الطبري نفسه أن أرواحهم رُدّت إلى أجسامهم «بعد نومة ناموها»[6]. وقال ابن كثير إن ذلك لا ينفي عذاب القبر، لأنه في جنب ما بعده من الشدة كالرقاد. فالرقدة

ثابتة عند الجميع، والخلاف في طولها: نحن نقول هي المدة كلها، وهم يقولون هي آخرها. وعلى القولين يقوم المبعوث وآخر ما يجده رقاد.

«كذلك كانوا يؤفكون»: واهمون لا كاذبون

قد يُعترض بأن القرآن عقّب على قسم المجرمين بقوله «كذلك كانوا يؤفكون»، فقولهم مردود عليهم، فكيف يُبنى عليه؟

والجواب من ثلاثة وجوه.

الأول: الإفك صرفٌ عن الحق، لا اختلاق للباطل. الفعل مبني للمجهول: يُؤفكون، أي يُصرفون. فهم مصروفون عن إدراك المدة الحقيقية، كما كانوا مصروفين في الدنيا عن إدراك البعث. وهذا قريب مما ذهب إليه ابن عاشور حين عدّ قولهم غلطاً وتوهّماً يحسبون أنفسهم محقّين فيه[3].

الثاني: أهل العلم صحّحوا الواقع ولم يكذّبوا الشعور. ختموا جوابهم بقولهم: «ولكنكم كنتم لا تعلمون». لم يقولوا كذبتم، بل قالوا لا تعلمون. فالمدة واقعة في علم الله وكتابه، غائبة عن علم صاحبها.

الثالث: الإقرار على القلّة في سورة المؤمنون. لما أجابوا «يوماً أو بعض يوم» جاء الرد: «إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون» (114). فأقرّهم على القلّة ولم ينكرها.

ولا نقول إن الآية تصدّق تقديرهم كله. تقديرهم خاطئ في الواقع، وقد صحّحه أهل العلم والإيمان. والذي نأخذه أن قوله «ولكنكم كنتم لا تعلمون» يفرّق بين المدة الواقعة في علم الله وبين ما وجدوه هم منها.

وأقوى من ذلك أن ابن عطية جعل هذه الخاتمة نفسها دليلاً على أن المراد لبث القبر، وضعّف بها قول من حمله على الدنيا[3]. فما ظُنّ اعتراضاً علينا هو عند إمام من أئمة التفسير قرينة لنا.

«كأنهم يوم يرونها»: هل الهول هو السبب؟

في ثلاث من الآيات السبع يبدأ الوصف بـ«كأن»، ويقترن بلحظة الرؤية: «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها» (النازعات 46)، «ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار» (يونس 45)، «كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار» (الأحقاف 35). وظاهر هذه الآيات أن المشهد العظيم يصغّر في أعينهم كل ما كان قبله، كما يصغر الماضي كله أمام خطب جلل. وهذا قول جمهور المفسرين فيها، وهو قول قوي لا نستخف به؛ فالطبري وقتادة يحملان آية النازعات وآية الأحقاف على مدة الدنيا في أعينهم، وابن كثير يحمل آية يونس عليها، وذكر القرطبي معها احتمال مدة القبور.

ولذلك لا نجعل هذه الآيات الثلاث دليلاً مستقلاً على أن المدة مدة القبور. هي عندنا قرائن على أن الزمن الطويل يبدو قصيراً جداً عند البعث. وتحديد المدة المقصودة نأخذه من آيات السؤال والجواب وقرائنها.

ولا نراه يناقض ما نقول، لثلاثة أمور.

الأول: السببان يجتمعان. من لم يجد المدة أصلاً، ثم قام على مشهد عظيم، وجدها أقصر وأقصر. فالهول يزيد الاستقصار ولا يلغي أصله.

الثاني: الآيات الأربع الأخرى ليست «كأن». هي جواب عن سؤال صريح، يقدّر فيه المسؤول ما لبث: «لبثنا يوماً أو بعض يوم»، «إن لبثتم إلا عشراً»، «ما لبثوا غير ساعة». ثم يأتي التصحيح من خارجهم: «لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث». فهي تقدير لمدة، لا وصف لانطباع.

الثالث، وهو الحاسم: العبارة نفسها قيلت بلا هول. صاحب القرية قام بعد مئة عام على قرية عامرة وحمار ميت، وأصحاب الكهف قاموا على كهف هادئ وجوع يسير. لا قيامة ولا نار ولا ميزان. ومع ذلك قالوا العبارة بحروفها: «يوماً أو بعض يوم». فالذي جعلهم يستقصرون لم يكن الهول؛ كان أنهم لم يجدوا من المدة شيئاً.

ما يثبته هذا الفصل

يثبت هذا الفصل ثلاثة أمور، ويترك أمراً واحداً لما بعده.

1. **المبعوث يستقصر المدة.** هذا نص القرآن في سبعة مواضع، لا خلاف فيه.
2. **المدة المستقصرة، في ما نرجّحه، هي مدة الموت.** هذا قول الطبري ومقاتل وابن عطية والجلالين وابن عاشور في آية الروم، وتسنده خمس قرائن من القرآن

نفسه. وهو ترجيح له جذور معتبرة في كتب التفسير، والمسألة محل خلاف بين المفسرين.

3. **الاستقصار شعور صادق يخالف الواقع.** فالقرون مضت في كتاب الله، ولم تمضِ في شعور أصحابها.

وإذا صحّ ذلك لزم منه ما نريد: من مات قبل ألف سنة ومن مات قبل يوم يقومان معاً، وكلاهما يقول: يوماً أو بعض يوم. الفرق بينهما في تقويم الأحياء، لا في تجربتهما.

وهذا القدر يثبت بآيات اللبث وحدها. أما أن الميت لا يجد في تلك المدة شيئاً البتة فدعوى أوسع، ولا يكفي فيها الاستقصار؛ فقد يجد المرء ثم يستقصر. ودليلها في الفصول من السابع إلى الثاني عشر.

هوامش الفصل الخامس

1. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير المؤمنون 112.
2. ابن كثير والبغوي والسعدي، تفسير الروم 55.
3. الطبري في «جامع البيان»، ومقاتل بن سليمان في تفسيره، والجلالان، وابن عطية في «المحرر الوجيز»، وابن عاشور في «التحرير والتنوير»: كلهم عند الروم 55.
4. البيضاوي، أنوار التنزيل، الروم 55.
5. البيضاوي، أنوار التنزيل، المؤمنون 112.
6. ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم»، يس 52، وفيه القول عن أُبيّ بن كعب ومجاهد والحسن وقتادة. والطبري، «جامع البيان»، يس 52، وفيه أثر أُبيّ وأثر قتادة.

الفصل السادس

تجربتان قرآنيتان

«قال كم لبثتَ قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم» (البقرة 259)

ماذا قال من غاب عن الزمن قروناً ثم عاد؟

من الخبر إلى التجربة

آيات اللبث التي مرّت في الفصل السابق تخبر عما سيكون يوم القيامة. وقد يقول قائل: ذاك غيب لا نشهده، فكيف نفهمه؟ والقرآن لم يترك السؤال بلا جواب. ساق تجربتين وقعتا في الدنيا، لأناس غابوا عن الزمن ثم عادوا إليه فسُئلوا السؤال نفسه، وأجابوا الجواب نفسه، بحروفه.

التجربة الأولى موتٌ صريح دام مئة عام. والثانية رقادٌ دام ثلاثمئة سنة وتسعاً. وفي الاثنتين جاء التقدير: «يوماً أو بعض يوم».

صاحب القرية: مئة عام في بعض يوم

«أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مئة عام» (البقرة 259).

اختلف المفسرون في اسم الرجل؛ فقيل عزير، وقيل إرمياء[1]. والاسم لا يعنينا؛ فالقرآن طواه ليبقى النظر على الواقعة. وفي الواقعة أربعة أمور.

الأول: أنه موت حقيقي. اللفظ «فأماته الله»، ثم «بعثه». هما لفظا الموت والبعث اللذان يستعملهما القرآن للموت الأكبر والبعث الأكبر. فالرجل ذاق ما يذوقه كل ميت.

الثاني: أنه أجاب عن خبرته هو. سُئل «كم لبثت» فلم يقل لا أدري، ولم يقل دهراً طويلاً. قال ما وجده في نفسه: يوماً أو بعض يوم. والمشهور في كتب التفسير أنه أُميت أول النهار وبُعث آخره، فلما رأى الشمس باقية استدرك فقال: أو بعض يوم[2]. فهو يصل لحظة موته بلحظة بعثه كأن لا شيء بينهما.

الثالث: أن الله صحّح له الواقع ولم يلُمه على الشعور. «بل لبثت مئة عام». فالمئة حقيقة في الخارج، واليوم حقيقة في نفسه، ولا تناقض بينهما. وهذا هو الفرق بين الزمن الموضوعي والزمن الذاتي، منصوصاً عليه في آية واحدة.

الرابع: زمنان في مشهد واحد. «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك». الطعام لم يتغير كأن ساعة لم تمرّ عليه، والحمار صار عظاماً نخرة مرّت عليها مئة عام. شيئان متجاوران، ولكل منهما زمنه. فمرور الزمن ليس قانوناً واحداً يجري على كل شيء بالقدر نفسه، هو بيد الله، يُجريه على ما يشاء ويمسكه عما يشاء.

وخُتمت الآية بالغاية: «ولنجعلك آية للناس». فالرجل جُعل نموذجاً يُنظر فيه، لا حادثة تُروى وتُنسى.

أصحاب الكهف: ثلاثة قرون في بعض يوم

فتية أووا إلى الكهف فراراً بدينهم، «فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً * ثم بعثناهم» (الكهف 11-12). ولما بُعثوا تساءلوا: «قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم» (19). ثم يخبر القرآن بالواقع: «ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً» (25).

وفي القصة أربعة أمور تخدم ما نحن فيه.

الأول: لفظ البعث. سمّى القرآن إيقاظهم بعثاً مرتين: «ثم بعثناهم»، «وكذلك بعثناهم». وهو اللفظ الذي يسمّي به قيام الموتى. فالقرآن نفسه يربط بين اليقظتين.

الثاني: انقطاع الحس. «فضربنا على آذانهم». أُغلق السمع، وهو الحاسة التي يُوقَظ بها النائم. ومن انقطع حسّه انقطع عنه الزمن، لأن الإنسان لا يعرف الزمن إلا بتعاقب ما يدركه.

الثالث: الجسد يتغير والشعور واقف. «وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال» (18). الشمس تطلع وتغرب عليهم، وأجسادهم تُقلَّب، والقرون تمضي على المدينة، وهم لا يجدون من ذلك شيئاً.

الرابع: الغاية منصوصة. «وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها» (21). فالقصة سيقت دليلاً على البعث، وقد كان الناس يتنازعون فيه بين مثبت ومنكر، كما ذكر السعدي[3]. ووجه الدلالة عند الجلالين أن القادر على إنامتهم المدة الطويلة وإبقائهم بلا غذاء قادر على إحياء الموتى[4].

ونزيد على ذلك وجهاً: القصة دليل على إمكان البعث، وهي أيضاً بيان لكيفيته من جهة المبعوث: يقوم فلا يجد في نفسه من القرون إلا يوماً أو بعض يوم.

ما تشترك فيه التجربتان

العبارة واحدة في ثلاثة مقامات: ميت بُعث بعد مئة عام، ورقود بُعثوا بعد ثلاثة قرون، وموتى يُبعثون يوم القيامة. والمدد متفاوتة تفاوتاً عظيماً، والجواب لا يتفاوت.

المقام	المدة في الواقع	المدة في شعور صاحبها	الموضع
صاحب القرية	مئة عام	يوم أو بعض يوم	البقرة 259
أصحاب الكهف	ثلاثمئة سنة وتسع	يوم أو بعض يوم	الكهف 19 و25
المبعوثون يوم القيامة	من الموت إلى البعث، قروناً أو أياماً	يوم أو بعض يوم	المؤمنون 113

إذا كانت المئة والثلاثمئة تستويان في شعور صاحبهما، فالألف والعشرة آلاف كذلك. المدة الخارجية لا أثر لها في الجواب، طالت أو قصرت.

اعتراض وجوابه: النائم ليس ميتاً

قد يقال: أصحاب الكهف ناموا ولم يموتوا، فكيف يُقاس الميت على النائم؟ والجواب من ثلاثة وجوه.

1. **القرآن هو الذي قرن بينهما.** «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها» (الزمر 42). سمّى الاثنين توفّياً، وفرّق بينهما بالإمساك والإرسال فقط. وهذا موضوع الفصل الرابع.
2. **صاحب القرية مات موتاً صريحاً وقال العبارة نفسها.** فالتجربة الأولى تسدّ ما قد يُظن نقصاً في الثانية.

3. **قياس الأولى.** إذا كان النائم، وجسده حيّ ينبض ويقلَّب، لا يجد من ثلاثة قرون شيئاً، فالميت الذي بلي جسده وصار تراباً أولى ألا يجد.

لكن أين يكون الميت في هذه المدة؟ يسمّيها القرآن برزخاً. فما البرزخ؟

هوامش الفصل السادس

1. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، البقرة 259.
2. يُنظر: تفسير ابن كثير، البقرة 259.
3. السعدي، تيسير الكريم الرحمن، الكهف 21.
4. تفسير الجلالين، الكهف 21.

الفصل السابع

البرزخ في القرآن — حاجز إلى يوم يُبعثون

«ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون» (المؤمنون 100)

هل البرزخ دار يسكنها الموتى، أم حاجز بينهم وبين الرجوع؟

كلمة قرآنية حُمّلت أكثر مما تحمل

شاع في كلام الناس «عالم البرزخ» و«الحياة البرزخية»، حتى صار البرزخ في الأذهان داراً ثالثة بين الدنيا والآخرة، لها سكانها وأحوالها وزمنها. وهذا الفصل يسأل سؤالاً واحداً: ماذا تعني الكلمة في القرآن نفسه؟

البرزخ في مواضعه الثلاثة

وردت الكلمة في القرآن ثلاث مرات.

في سورة الرحمن: «مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان» (الرحمن 19–20)، حاجز بين بحرين. وفي الفرقان: «وجعل بينهما برزخاً وحِجراً محجوراً» (الفرقان 53)،

حاجز بين عذب ومالح. وفي المؤمنون: «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون» (المؤمنون 100)، حاجز بين الميت وما يطلبه.

في الموضعين الأولين لا يختلف أحد: البرزخ حاجز يمنع أحد الشيئين من الآخر. وليس مكاناً يُسكن. والقرآن يفسر بعضه بعضاً؛ فالكلمة في موضعها الثالث على معناها في الموضعين.

ما الذي يحجزه البرزخ؟

سياق الآية يجيب. «حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون» (المؤمنون 99-100).

الرجل يطلب الرجوع إلى الدنيا. فيأتيه الرد: كلا. ثم تعليل الرد: أمامهم حاجز إلى يوم البعث. فالحاجز هنا حاجز عن الرجوع. الآية تقول ما الذي يُمنع منه الميت، ولا تصف حياة يحياها.

وهذا منقول عن السلف. حكى القرطبي عن الضحاك ومجاهد وابن زيد أن البرزخ حاجز بين الموت والبعث، وحكى عن مجاهد قولاً آخر أصرح: هو الحاجز بين الموت والرجوع إلى الدنيا[1]. وفسّره السعدي بالحاجز بين الشيئين، ثم زاد أن في هذا البرزخ نعيماً

وعذاباً[2]. والزيادة ليست من لفظ الآية، هي مأخوذة من أدلة أخرى نناقشها في الفصلين العاشر والحادي عشر.

فالقدر الذي تدل عليه الآية: بين الميت والدنيا حاجز لا يُعبر، وله غاية هي يوم البعث.

الموت الأول نموذج للثاني

يذكّرنا القرآن بأن الموت الذي نخافه ليس أول موت لنا. «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجعون» (البقرة 28). «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً» (الإنسان 1). «وقد خلقتك من قبل ولم تكُ شيئاً» (مريم 9).

مضى على كل واحد منا، قبل أن يولد، دهر لا يُحصى. ولا يجد أحد في نفسه من ذلك الدهر شيئاً: لا طولاً ولا انتظاراً ولا وحشة. والقرآن سمّى تلك الحال موتاً، وسمّى ما بعد الحياة موتاً، باللفظ نفسه في الآية نفسها. فما نعرفه من الموت الأول هو أقرب ما نقيس عليه الثاني.

وقد وقف عند هذا المعنى من لا يقرأ القرآن. باسكال، عالم الرياضيات الفرنسي المؤمن، كتب أن حياته القصيرة مبتلَعة بين أبديتين: واحدة قبلها وواحدة بعدها. وعلّق كاتب معاصر على عبارته متعجباً من نفسه: كانت قبل حياتي أبدية كاملة، ولم أفقد بسببها ساعة

نوم واحدة، فلماذا أخاف التي بعدها وحدها؟[3]. والجواب عندنا أن التي قبلها لم نجد منها شيئاً. وكذلك ما بين الموت والبعث.

الموتى لا يسمعون

والقرآن يصف أهل القبور بأنهم لا يَسمعون.

- «وما أنت بمسمع من في القبور» (فاطر 22).
- «إنك لا تُسمع الموتى» (النمل 80).

والآيتان سيقتا مثلاً للكافر الذي لا ينتفع بما يسمع. لكن المثل لا يصح إلا إذا كان الأصل مسلَّماً: أن الميت لا يسمع. فالقرآن يبني على ذلك كما يُبنى على المعلوم.

وقد يُستشهد في هذا الباب بقوله تعالى: «أموات غير أحياء وما يشعرون أيّان يُبعثون» (النحل 21). ولا نستشهد بها، لأمرين. الأول أن سياقها في المعبودين من دون الله؛ فالآية قبلها: «والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون» (النحل 20)، وأشهر أقوال المفسرين أنها في الأصنام. والثاني أن الذي تنفيه هو العلم بموعد البعث، لا الشعور كله. فحملُها على كل ميت تحميل لها ما لا تحمل، وقد التزمنا ألا نفعل ذلك. وأدلّ منها على حال الميت لفظ المبعوثين أنفسهم: «من بعثنا من مرقدنا» (يس 52).

هل يحسّ الميت بمن يغسّله؟

يسأل كثير من الناس: هل يشعر الميت ونحن نغسّله ونكفّنه ونحمله؟

والجواب من وجهين. الأول ما مرّ: القرآن ينفي السماع عن أهل القبور، والمبعوثون يسمّون ما كانوا فيه مرقداً. والثاني قياس الأولى. المخدَّر في غرفة العمليات حيّ، قلبه ينبض ودماغه يعمل، ومع ذلك يفيق فلا يذكر المشرط ولا يجد الساعات. فكيف بمن توقف دماغه كله؟ وهذا تقريب لا دليل؛ والدليل ما مرّ من القرآن.

وفي الباب حديث صحيح أن الميت يسمع قرع نعال مشيّعيه إذا انصرفوا عنه[4]. وهو من شأن الدفن والسؤال الذي نقرّ به، كما يأتي في الفصل الثاني عشر؛ ولا يدل على أنه يحسّ بما يجري حول قبره بعد ذلك.

ما يثبته هذا الفصل

1. البرزخ في القرآن حاجز، لا دار. ومعناه في آية المؤمنون المنع من الرجوع إلى يوم البعث.
2. القرآن ينفي السماع عن أهل القبور، والمبعوثون يسمّون ما كانوا فيه مرقداً.
3. الموت قبل الميلاد والنوم كل ليلة نموذجان قرآنيان لما بين الموت والبعث.

ويبقى استثناء نقرّ به ونفصّله في الفصل الحادي عشر: الشهداء أحياء عند ربهم بنص القرآن.

هوامش الفصل السابع

1. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المؤمنون 100.
2. السعدي، تيسير الكريم الرحمن، المؤمنون 100.
3. دانيال كلاين، «كلما وجدتُ معنى الحياة يغيّرونه»، ترجمة شهرت العالم، آفاق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2023، ص 191، وفيها عبارة باسكال من كتابه «الأفكار» وتعليق المؤلف عليها.
4. صحيح البخاري (1338)، وصحيح مسلم (2870)، من حديث أنس بن مالك.

الفصل الثامن

تسلسل المصير في القرآن

«ثم إنكم بعد ذلك لميّتون * ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون» (المؤمنون 15-16)

ما المحطات بين الميلاد والخلود كما يعدّها القرآن؟

الخريطة كاملة

بعد أن نظرنا في الآيات واحدة واحدة، نرسم في هذا الفصل الطريق كله كما يرسمه القرآن: من أين يبدأ الإنسان وإلى أين ينتهي، وما المحطات بين الطرفين.

القرآن يعدّ المراحل بنفسه

في القرآن آيات تسرد مراحل الإنسان بحرف «ثم»، مرحلة بعد مرحلة.

- «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين...» إلى قوله: «ثم إنكم بعد ذلك لميّتون * ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون» (المؤمنون 12-16).
- «الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم» (الروم 40).

- «قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه» (الجاثية 26).
- «وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجعون» (البقرة 28).

أربع قوائم في أربع سور. وفي كل واحدة منها: حياة، ثم موت، ثم إحياء أو جمع. وليس في واحدة منها مرحلة بين الموت والبعث. ولو كان بينهما حياة فيها نعيم وعذاب لكانت أولى بالذكر من الرزق.

المحطات

المحطة	شاهدها	زمنها عند صاحبها
العدم قبل الخلق	«وكنتم أمواتاً»، «لم يكن شيئاً مذكوراً»	لا شيء
الحياة الدنيا	«فأحياكم»، «ثم رزقكم»	العمر كله
الموت	«كل نفس ذائقة الموت» (آل عمران 185)	لحظة
ما بين الموت والبعث	«ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون»	لا شيء: «يوماً أو بعض يوم»
النفخة والبعث	«ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون» (الزمر 68)	بغتة
الحشر	«وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً» (الكهف 47)	يوم جامع

المحطة	شاهدها	زمنها عند صاحبها
الكتاب والحساب	«اقرأ كتابك» (الإسراء 14)، «ووجدوا ما عملوا حاضراً» (الكهف 49)	يوم الدين
الجزاء	«وإنما تُوفَّون أجوركم يوم القيامة» (آل عمران 185)	خلود

العمود الأخير هو ما يضيفه هذا الكتاب. المحطة الرابعة لها مدة في تقويم الأحياء، وليس لها مدة عند صاحبها. فالطريق من جهة السائر فيه: حياة، ثم موت، ثم قيام.

الناس يُبعثون معاً

«قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم» (الواقعة 49–50).

الحساب جماعي في يوم واحد. لا يسبق إليه من مات أولاً، ولا يتأخر عنه من مات آخراً. ولهذا يكون الجزاء الأوفى بعد ذلك اليوم؛ فالجزاء فرع الحساب.

كيف يُثبت القرآن البعث بالعقل؟

القرآن لا يكتفي بالإخبار عن البعث. يستدل عليه، ويطلب من منكره أن يفكر. وأدلته خمسة.

الأول: من بدأ يعيد. «ويقول الإنسان أإذا ما متّ لسوف أُخرج حياً * أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يكُ شيئاً» (مريم 66-67). «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» (الروم 27). الإيجاد من لا شيء أعجب من الإعادة، وقد وقع.

الثاني: من خلق الأكبر يخلق الأصغر. «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس» (غافر 57). «أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى» (يس 81).

الثالث: الأرض تموت وتحيا أمام أعيننا. «ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى» (فصلت 39). «وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج» (ق 11).

الرابع: النوم واليقظة. «وهو الذي يتوفّاكم بالليل... ثم يبعثكم فيه» (الأنعام 60). من يُبعث كل صباح لا يستبعد بعثاً أكبر.

الخامس: العدل. «أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجّار» (ص 28). «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون» (المؤمنون 115). لو انتهى كل شيء بالموت لاستوى الظالم والمظلوم، وهذا ما تأباه الفطرة قبل النص. وهذا الدليل هو موضوع الفصل الثالث.

المبعوث هو أنت

قد يُسأل: الذي يقوم يوم القيامة، أهو أنا أم شبيه بي؟ والقرآن يجيب بالتفصيل الدقيق: «أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوّي بنانه» (القيامة 3-4). البنان أطراف الأصابع، وفيها ما يميّز كل إنسان عن غيره. فالإعادة إعادة هذا الشخص بعينه، بجسده وكتابه وذاكرته: «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً» (آل عمران 30). ومناقشة الاعتراضات على ذلك في الفصل الخامس عشر.

أين وصلنا

يجتمع مما مضى من هذا الباب تصوّر واحد.

1. المبعوثون يستقصرون ما لبثوا، والمدة المستقصرة مدة الموت (الفصل الخامس).
2. تجربتان وقعتا في الدنيا تشهدان بذلك (الفصل السادس).
3. البرزخ حاجز عن الرجوع، وأهل القبور لا يَسمعون، والمبعوثون يسمّون ما كانوا فيه مرقداً (الفصل السابع).
4. القرآن يعدّ المراحل: حياة ثم موت ثم بعث ثم حساب ثم جزاء (هذا الفصل).

وهذا التصوّر يخالفه جمهور العلماء في موضع واحد: ما بين الموت والبعث. ولهم أدلتهم، ومنها آيات. فالباب التالي لهم: نبيّن الميزان الذي نزن به، ثم نعرض أدلتهم، ثم نناقشها.

الباب الثالث

مسألة عذاب القبر

هنا يقف الكتّاب عند أكثر مسائله خلافاً. يبيّن ميزانه، ثم يعرض أقوى ما عند جمهور العلماء، ثم يناقشه، ثم يذكر من سبق إلى هذا الفهم.

وفي هذا الباب خمس مسائل يكثر الخلط بينها. **أصل البرزخ**: حاجز ومدة بين الموت والبعث، بنص القرآن ولا خلاف فيه. **وفتنة القبر وسؤاله** عند الموت، وهذه نقرّ بها. **وعرض المقعد على الميت**، ونقرّ به كذلك، وهو عندنا مما يكون عند الموت. **واستمرار العذاب أو النعيم** في المدة كلها حتى البعث، وهذه وحدها موضع الخلاف بيننا وبين الجمهور. **والشعور بطول المدة**، وهو أطروحة الكتّاب: لا يجده الميت على القولين معاً.

وهذا الباب لمن يهمّه الخلاف وأدلته. ومن أراد الفكرة وثمرتها فله أن يتجاوزه، ولا يفوته شيء من أطروحة الكتّاب.

الفصل التاسع

قواعد البحث — بأي ميزان نزن ما يخالفنا

«أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» (محمد 24)

بأيّ ميزان نزن ما يأتي في هذا الكتاب؟

لماذا فصل في المنهج؟

هذا الكتاب يخالف قول الجمهور في مسألة واحدة: ما يجده الميت بين موته وبعثه. ومن خالف الجمهور فعليه أن يبيّن طريقته قبل نتيجته، حتى يعرف القارئ أين يوافق وأين يفارق، ولماذا. وهذه قواعدنا، نلتزمها في الكتاب كله.

القاعدة الأولى: القرآن يفسّر بعضه بعضاً

نبدأ بالقرآن، ونجمع آيات الموضوع الواحد كلها قبل أن نحكم. وإذا احتملت آية أكثر من معنى رددناها إلى الآيات التي لا تحتمل. وهذا ما يعلّمه القرآن نفسه: «منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأُخر متشابهات» (آل عمران 7). الأمّ يُرجَع إليها.

ولا نختار من أقوال المفسرين ما يوافقنا لأنه يوافقنا. نرجّح بالدليل، ونذكر القول المخالف وصاحبه كما هو.

القاعدة الثانية: موقفنا من الحديث

وهذه أهم القواعد، لأنها موضع الخلاف. ونقولها صريحة حتى لا يُظنّ بنا غير ما نقول.

نحن لا ننكر السنة. «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (الحشر 7). والسنة بيان للقرآن: «وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم» (النحل 44). بها عرفنا الصلاة والزكاة والحج، وفي هذا الكتاب نفسه نستشهد بأحاديث كثيرة.

ولا نقول إن أحاديث عذاب القبر مكذوبة. منها ما هو في الصحيحين، ورواته أئمة.

لكننا نفرّق بين درجتين من الثبوت. القرآن قطعي الثبوت كله. والحديث منه المتواتر، وهو قليل، ومنه خبر الآحاد، وهو الأكثر. وخبر الآحاد الصحيح حجة يُعمل بها عند عامة العلماء. أما هل يفيد اليقين أم الظن الراجح، فمسألة قديمة عند الأصوليين. وقد نصّ بعض أئمتهم على أن الأكثرين على أنه لا يفيد العلم القاطع[1]. وهذا لا يطعن في الرواة؛ هو وصف لطبيعة الخبر الذي ينقله الواحد والاثنان.

ونعرض الرواية على القرآن. ولهذا سلف من جهتين. الأولى ما فعلته عائشة حين ردّت ظاهر رواياتٍ بآيات. والثانية ما قرره أصوليو الحنفية من أن خبر الواحد يُعرض على

الكتاب، فإن خالفه لم يُؤخذ بظاهره[2]. ونعلم أن أكثر المحدّثين لا يوافقون على هذه القاعدة بإطلاقها، ونذكر ذلك إنصافاً.

فإذا ورد علينا حديث صحيح يخالف ظاهره ما فهمناه من آيات عامة، سلكنا ثلاث خطوات بالترتيب:

1. **نحاول الجمع.** نبحث عن معنى يصح معه الحديث والآية معاً.
2. **فإن لم يتيسر، قدّمنا عموم القرآن** وتوقفنا في الحديث. والتوقف ليس تكذيباً؛ هو أن نقول: لا نبني عليه عقيدة، ولا نجزم ببطلانه.
3. **ونبقي للمخالف قوله.** من ثبت عنده الحديث وبنى عليه فهو متبع لما صحّ عنده، ولا نلومه.

ومن يرى أحاديث الباب متواترة لن يوافقنا على هذه القاعدة. ولذلك جعلنا أطروحة الكتاب لا نتوقف عليها، كما يأتي في الفصل الثاني عشر.

بين القرآنيين وأهل الحديث: أين يقف هذا الكتاب؟

في عصرنا نقاش حادّ بين فريقين. القرآنيون يرون القرآن وحده مصدر الدين الملزم، ولا يجعلون للروايات حجية مستقلة؛ وقد برز اتجاههم في القرنين الأخيرين، ومن أوائله محمد توفيق صدقي في أول القرن العشرين. وأهل الحديث يرون السنة مصدراً إلى جانب القرآن، والحديث الصحيح حجة، ولهم في نقد الروايات علم دقيق بأسانيده ورجاله.

وهذا الكتاب ليس مع أحد الطرفين على إطلاقه. ويعين على فهم موقعه أن نفرّق بين ثلاث مسائل كثيراً ما تختلط:

1. **وجود السنة:** أن للنبي ﷺ هدياً وتعليماً خارج نص القرآن. وهذا لا نشك فيه؛ فقد أمر القرآن بطاعته، وجعله مبيّناً لما نزل.
2. **إمكان إثباتها:** هل وصلنا هذا الهدي بطريق يُطمأن إليه؟ وهذا يُبحث رواية رواية، لا جملة واحدة. ومنه ما نُقل بالتواتر العملي، كهيئة الصلاة التي صلّاها المسلمون جماعة جيلاً بعد جيل، ومنه ما نُقل بخبر الواحد.
3. **حجيتها في العقيدة:** هل يُبنى على خبر الواحد اعتقاد في الغيب، ولو خالف ظاهرُه عموم القرآن؟ وهنا وحده موضع اجتهادنا.

ونفرّق كذلك بين السنة والحديث. السنة ما ثبت من هدي النبي، والحديث رواية تنقل قولاً أو فعلاً منسوباً إليه. فليس كل ما رُوي سنة ثابتة، وليس رفض رواية بعينها رفضاً للسنة. كما أن قبول حجية السنة لا يعني قبول كل ما في كتب الرواية.

وبهذا التفريق يتضح موقف الكتاب: نأخذ بالسنة الثابتة، ونستشهد بالحديث الصحيح في مواضع كثيرة، ونخالف القرآنيين في ردّ الروايات جملة. ونخالف من يجعل كل رواية صحيحة الإسناد قطعية الدلالة في الغيب. ومسألتنا من هذا النوع الأخير: غيب، وروايات ليست على نسق واحد، وآيات عامة. فنعرض الروايات على الآيات، كما فعلت عائشة، ونترك لمن خالفنا قوله.

وما يجمع الطرفين في مسألتنا أكبر مما يفرّقهما. فأطروحة الكتاب، أن الميت لا يجد طول المدة بين موته وبعثه، يقبلها القرآني لأنها من آيات اللبث وحدها. ويقبلها صاحب الحديث، لأنها لا تنفي شيئاً مما صحّ عنده في القبر، وفي رواياته نفسها: «نم كنومة العروس... حتى يبعثه الله». فالخلاف بينهما يبقى في ترجيحنا الزائد وحده، وهو ما نعرضه رأياً لا عقيدة نلزم بها أحداً. وهذا هو الوسط الذي نرجو أن يجتمع عليه القارئان: نص القرآن حاكم، والسنة الثابتة مبيّنة، ولا يُبنى في الغيب على ما اختلفت فيه الروايات أكثر مما تحتمل.

والعلم شاهد ثالث لا ينتمي إلى أحد الفريقين. يعرف علماء النفس أن الإنسان يبني تقديره لمدة مضت من ذاكرته؛ فإذا لم يُحفظ له منها شيء قصرت في تقديره[3]. وأما ما بعد موت الدماغ فالطب لا يقيس فيه شيئاً، فلا يثبت عذاباً ولا ينفيه. فالعلم يقف مع ما اتفق عليه الفريقان، ويسكت عما اختلفا فيه.

القاعدة الثالثة: العلم شاهد لا دليل

نستشهد بالنوم والتخدير وبما عرفته الفيزياء عن الزمن. وكل ذلك يقرّب المعنى ويرفع الاستبعاد، ولا يثبت شيئاً عن حال الموتى. الدليل عندنا النص. والقرآن ينهى عن القول بلا علم: «ولا تقفُ ما ليس لك به علم» (الإسراء 36).

ولهذا نتجنب ما شاع من حسابات الإعجاز العددي، وما يُنسب إلى ميكانيكا الكم من إثبات الروح أو البعث. ليس في العلم ما يسند ذلك، والكتاب يضعف به ولا يقوى.

القاعدة الرابعة: ثلاث مراتب لكل دعوى

نفرّق في كل موضع بين ثلاثة:

الثابت نص قرآني صريح لا خلاف في معناه، ومثاله أن المبعوثين يستقصرون ما لبثوا. **والراجح** فهمٌ نرجّحه بقرائن ويخالفنا فيه غيرنا، ومثاله أن الميت لا يجد بعد سؤال القبر شيئاً حتى يُبعث. **والإيمان** ما لا يبلغه برهان، ومثاله كيف يُعاد الإنسان بعينه.

ومن خلط بين هذه المراتب ادّعى أكثر مما يملك.

القاعدة الخامسة: نعرض قول المخالف بأقوى صوره

نعرض الاعتراض بلفظ صاحبه، ونبدأ بأقوى أدلته لا بأضعفها. وقد مدح القرآن «الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه» (الزمر 18). ولا يتبع الأحسن من لم يسمع القولين.

القاعدة السادسة: لا دعوى في أمر الله بلا كتاب

في سورة القلم مشهد يصلح أن يكون ميزاناً لكل من يتكلم في الغيب. قوم يدّعون أن لهم عند الله ما يشتهون، فلا يُناقشون في أمانيهم، بل يُسألون عن مصدرها: «ما لكم كيف تحكمون * أم لكم كتاب فيه تدرسون * إن لكم فيه لما تخيّرون * أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون» (القلم 36-39). أي: هل عندكم كتاب منزل تقرؤون فيه ذلك، أو عهد موثّق من الله؟[4].

والدرس أن الأماني لا تصنع حقاً، وأن ما بعد الموت غيب لا يُقال فيه إلا بكتاب. وهذا الميزان نطبّقه على أنفسنا قبل غيرنا. فمن قال إن الموتى ينتظرون القرون يعدّونها، سألناه: أين الكتاب؟ ومن قال إنهم لا يجدون شيئاً، وهو نحن، سُئل السؤال نفسه. وجوابنا آيات اللبث: هي «الكتاب الذي فيه ندرس». وحيث لا نجد نصاً صريحاً نقول «نرجّح» ولا نقول «نجزم»؛ وهذا سبب المراتب الثلاث في القاعدة الرابعة.

القاعدة السابعة: أدب الخلاف

المسألة مسألة فهم لنصوص، لا مسألة إيمان وكفر. فلا نسخر من قول، ولا نبدّع قائلاً. ومن خالفناهم أئمة نتعلم من كتبهم.

بهذه القواعد ندخل أصعب مسائل الكتاب. ونبدأ بما يقوله من يخالفنا، بأقوى ما عنده.

هوامش الفصل التاسع

1. زكريا الأنصاري، «غاية الوصول في شرح لبّ الأصول»، مبحث خبر الواحد؛ وفيه أن القول بأنه لا يفيد العلم مطلقاً عليه الأكثر، وأن الأصح عنده أنه يفيده إذا احتفّت به قرينة.
2. يُنظر مبحث عرض خبر الواحد على الكتاب في أصول الحنفية، ومنه «أصول البزدوي» و«أصول السرخسي».
3. R. A. Block, D. Zakay, «Prospective and retrospective duration judgments: A meta-analytic review», *Psychonomic Bulletin & Review* 4 (1997): 184–197. وفي أثر التخدير: J. J. Wehrman, C. C. Chung, R. D. Sanders, «Anaesthetics and time perception: A review», *Quarterly Journal of Experimental Psychology*, 2022.
4. الطبري وابن كثير والبغوي، القلم 37–39.

الفصل العاشر

مسألة عذاب القبر — أدلة المثبتين

«قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» (البقرة 111)

ما أقوى ما يقوله من يثبت عذاب القبر؟

لماذا نبدأ بقول المخالف؟

يرجّح هذا الكتاب أن الميت، بعد ما يكون عند موته، لا يجد شيئاً حتى يُبعث. وجمهور المسلمين على أن في تلك المدة نعيماً وعذاباً يجدهما الميت. فإن صحّ قولهم على إطلاقه لم يصحّ ترجيحنا، وإن بقيت أطروحة الكتاب سالمة؛ فهي لا تتوقف على هذه المسألة. ولا يليق بكتاب يدعو إلى التدبر أن يمرّ على ذلك مسرعاً.

هذا الفصل لقولهم وحده، نعرضه بأقوى ما يُعرض به. والمناقشة في الفصل الذي يليه.

من قال به ومن خالف

إثبات عذاب القبر ونعيمه قول أهل السنة، وعليه أكثر المعتزلة أيضاً. والمنقول في كتب الفرق أن الذين نفوه هم الخوارج وضرار بن عمرو وبشر المريسي وجماعة من متأخري المعتزلة[1]. وحجة النافين كما حكاها القاضي عبد الجبار أن الميت لا يسمع ولا يبصر ولا يدرك، فكيف يُسأل ويُعاقَب وهو ميت؟ والقاضي نفسه يقول إن أكثر شيوخه يثبتونه، وأجاز أن يكون وقوعه بين النفختين[2].

فالقول الذي نرجّحه قول قلة. نقول ذلك أولاً حتى يعرف القارئ أين يقف.

أدب هذا الخلاف

الذين أثبتوا عذاب القبر أئمة في العلم والدين: الأشعري والمتولي والتفتازاني والإيجي والنووي وابن حجر، ومن قبلهم ومن بعدهم. ونحن نقرأ كتبهم لنتعلم منها، ومنها أخذنا أكثر ما في هذا الفصل. ومخالفتنا لهم في هذه المسألة لا تنقص من قدرهم، ولا تجعلنا أعلم منهم.

من أثبت فقد اتبع ما صحّ عنده من الحديث، ومن توقف أو نفى فقد قدّم ما فهمه من القرآن. وكلا الفريقين يؤمن بالبعث والحساب والجزاء، وهو الأصل الذي لا خلاف فيه.

ولذلك لا نصف قول المثبتين بالخرافة، ولا نرضى لهجة من كتب في نفي المسألة ساخراً من مخالفيه. وقد قرّر أحد من جمع أقوال أهل السنة في هذا الباب أن لهم في كيفية العذاب قولين معتبرين، وأنه لا يسوغ التشنيع على من أخذ بأحدهما[3]. وبهذا الأدب نمضي.

أدلتهم من القرآن

آل فرعون. «النار يُعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» (غافر 46). هذا أقوى أدلتهم. الآية تذكر عرضاً على النار في الصباح والمساء، ثم تعطف عليه ما يكون يوم تقوم الساعة؛ فالعرض إذن قبل الساعة. وقد عدّها ابن كثير أصلاً كبيراً يستدل به أهل السنة على عذاب البرزخ[4].

الشهداء. «ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم» (آل عمران 169-170). حياة ورزق وفرح، واستبشار بمن لم يلحق بهم بعد؛ أي والدنيا قائمة. ومثلها: «بل أحياء ولكن لا تشعرون» (البقرة 154).

قوم نوح. «مما خطيئاتهم أُغرقوا فأُدخلوا ناراً» (نوح 25). الفاء للتعقيب: غرقٌ فدخولٌ بلا مهلة.

صاحب يس. «قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون» (يس 26). دخل وتكلم وقومه أحياء لم يُهلكوا بعد.

المنافقون. «سنعذبهم مرتين ثم يُردّون إلى عذاب عظيم» (التوبة 101). عذابان قبل عذاب الآخرة. وقال الحسن وابن جريج: أحدهما في الدنيا والآخر في القبر[5].

ساعة الموت. «والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذاب الهون» (الأنعام 93). الجزاء منسوب إلى «اليوم»، يوم الموت.

عذاب دون العذاب. «وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك» (الطور 47). وحُمل على عذاب القبر.

التثبيت. «يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة» (إبراهيم 27). وفي الصحيح أنها نزلت في سؤال القبر.

أدلتهم من السنة

الأحاديث في الباب كثيرة، وفي الصحيحين منها عدد: الاستعاذة من عذاب القبر في الصلاة، وحديث القبرين اللذين يُعذَّب صاحباهما، وسؤال الملكين، وعرض المقعد على الميت بالغداة والعشي. وفي المسند والسنن حديث البراء الطويل. وقد ترجم البخاري في كتاب الجنائز باباً لعذاب القبر. وأهل الحديث يعدّون مجموعها متواتراً في المعنى، ويحكون عليه إجماع أهل السنة[6].

أدلتهم من النظر

- لا استحالة فيه، والقادر على البعث قادر على ما دونه.
- النائم يرى في منامه ما يؤلمه ويسرّه، وجسده ساكن لا يظهر عليه شيء. فلا يُستدل بسكون الميت على أنه لا يجد شيئاً.
- العدل يقتضي ألا يستوي الظالم والمظلوم ولو في مدة البرزخ.

وأجابوا عن اعتراضين قديمين بما ينبغي أن يُذكر لهم.

قيل لهم: الميت جماد لا حياة فيه ولا إدراك، فتعذيبه محال. فأجاب التفتازاني بأن الله قادر أن يخلق في أجزاء الميت، كلها أو بعضها، نوعاً من الحياة بقدر ما يدرك به الألم أو اللذة، ولا يلزم من ذلك أن يتحرك أو يُرى عليه أثر[3].

وقيل لهم: نرى الميت على حاله لم يتغير، والمصلوب يبقى على خشبته حتى يبلى، ومن أكلته السباع تفرّق في بطونها. فأجاب المتولي والإيجي بأن اجتماع البنية ليس شرطاً للحياة، وأن خرق العادة في مقدور الله. وشبّهه النووي بالنائم: نراه ساكناً وهو يجد في منامه ألماً أو لذة لا نحسّها.

وهذه أجوبة صحيحة في بابها: نثبت أن الأمر ممكن. ولم نقل نحن إنه مستحيل. الخلاف في الوقوع لا في الإمكان.

وزن هذه الأدلة

هي أدلة قوية، ولا ننتقص منها. آية آل فرعون نص قرآني لا حديث. وآيات الشهداء صريحة في حياة قبل البعث. وكثرة الأحاديث لا تُدفع بكلمة.

وعلى هذا فقاعدتنا «القرآن حاكم على الحديث» لا تكفي وحدها جواباً؛ فبعض أدلتهم قرآن. والفصلان التاليان يناقشانها: الآيات أولاً، ثم الأحاديث.

هوامش الفصل العاشر

1. نقلاً عن شرح في العقيدة على المكتبة الشاملة يحيل إلى «مقالات الإسلاميين» للأشعري (2/116).
2. موسوعة الفرق، الدرر السنية، نقلاً عن «فضل الاعتزال» و«شرح الأصول الخمسة».
3. «عذاب القبر عند أهل السنة»، إعداد د. زياد حبوب أبو رجائي، وهو مجموع فيه نصوص المتولي في «المغني»، والتفتازاني في «شرح العقائد النسفية»، والإيجي في «المواقف» بشرحه، والأشعري في «الإبانة»، ص 5-34، ثم كلام الجامع في القولين ص 42-43. وقول النووي منقول فيه عن «المجموع» (5/323).
4. تفسير ابن كثير، غافر 46.
5. تفسير ابن كثير، التوبة 101.
6. الاستعاذة: البخاري (1377) ومسلم (588). والقبران: البخاري (218) ومسلم (292). وسؤال الملكين: البخاري (1338) ومسلم (2870). وعرض المقعد: البخاري (1379) ومسلم (2866).

الفصل الحادي عشر

مناقشة أدلة المثبتين — الآيات

«وإنما تُوفَّون أجوركم يوم القيامة» (آل عمران 185)

كيف نقرأ الآيات التي يستدل بها المثبتون؟

بماذا نحاكم؟

نحاكم إلى ما تقرّر في الفصلين السابع والثامن من آيات عامة في الناس كلهم.

- القرآن يعدّ المراحل: موت ثم بعث، «أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين» (غافر 11). حياتان لا ثلاث.
- أهل القبور لا يَسمعون (فاطر 22، النمل 80).
- المبعوثون يسمّون ما كانوا فيه مرقداً (يس 52).

ونضيف إليها أصلاً رابعاً: الجزاء مؤجَّل إلى يومه. «وإنما تُوفَّون أجوركم يوم القيامة» (آل عمران 185). «ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار» (إبراهيم 42). التأخير منصوص، وغايته ذلك اليوم.

وأدلة المثبتين، كما سيظهر، إما خاصة بقوم، وإما محتملة لأكثر من معنى. والقاعدة أن يُردّ المحتمل إلى المحكم.

آل فرعون

هي أقوى ما عندهم، وفيها أربعة أمور.

الأول: أنها في قوم بأعيانهم. الآية في آل فرعون، لا في كل ميت. ولو سلّمنا دلالتها لم تثبت بها قاعدة عامة.

الثاني: أنها عرضٌ لا تعذيب. لفظها «يُعرضون عليها»، ثم جعلت «أشد العذاب» ليوم تقوم الساعة. والقرآن يستعمل العرض على النار في مشاهد القيامة نفسها قبل الدخول: «ويوم يُعرض الذين كفروا على النار» (الأحقاف 20)، «وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذل» (الشورى 45).

الثالث: أن الغدوّ والعشيّ يردان في وصف الآخرة. «ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشياً» (مريم 62)، وهي في الجنة.

الرابع، وهو أهمها: شهادة من كتب المثبتين أنفسهم. ابن كثير، بعد أن عدّ الآية أصلاً في الباب، أورد عليها إشكالاً: الآية مكية، وقد روى أحمد عن عائشة أنها سألت النبي عن عذاب القبر بعد أن سمعته من امرأة يهودية، فنفاه، ونفى أن يكون عذاب قبل يوم القيامة، ثم أثبته بعد مدة[1]. ووجه الدلالة لنا: لو كانت آية غافر نصاً في عذاب القبر لما

جاز أن يُنفى بعد نزولها. فهي عند من نزلت عليه لم تكن تدل عليه. وقد أجاب ابن كثير نفسه بأن الآية تدل على عرض الأرواح على النار، وأن الذي ثبت بعدُ بالسنة هو تألّم الأجساد في القبور. وجوابه حسن في الجمع، لكنه يسلّم بأمرين: أن الآية لم تُفهم يوما في عذاب القبر بمعناه المعروف، وأن عذاب الأجساد ثبت عنده بالحديث لا بالآية. والرواية تنتهي بإثبات عذاب القبر، وموضع الشاهد منها أمر واحد، هو أن آية غافر لم تُفهم يوما نصاً في المسألة.

ومع ذلك فإن عطف «ويوم تقوم الساعة» على ما قبله يجعل قراءة المثبتين وجهاً قوياً. فالآية لا تحسم لنا ولا لهم. وهي خاصة على كل حال. ثم إن الخلاف فيها أضيق مما يبدو، فنحن لا ننكر أن يكون للإنسان عند موته عرض يرى فيه ما ينتظره. موضع النظر هو أن يمتد ذلك غدوة وعشية قروناً متطاولة.

وقد يُقال: أليس ذكر الطرفين دليلاً على قاعدة؟ القرآن ذكر الشهداء، وهم في أعلى الدرجات، وذكر آل فرعون وقوم نوح، وهم في أسفلها. فلعله ضرب مثلاً من كل طرف ليدل على ما بينهما. وهذا اعتراض وجيه، وعليه يبني كثير من المثبتين. وجوابنا أن القرآن تكلم عن الموت والموتى في عشرات المواضع، فلم يذكر حياة قبل البعث إلا في هؤلاء. وخصّ الشهداء بقوله «ولا تحسبنّ»، وهو خطاب يصحّح ظناً عاماً، فيدل على أن غيرهم على الأصل. ولو كان الأمر قاعدة في كل ميت لكان أولى المواضع بذكرها آيات المراحل التي تعدّ ما بعد الموت عدّاً، وقد مرّت في الفصل الثامن بلا مرحلة بين

الموت والبعث. فنحن نقرأ الطرفين استثناءين، ومن قرأهما قاعدة فله وجه، وهو قول الجمهور.

الشهداء

الآيتان صريحتان في حياة للشهداء، ولا نتأولهما. لكنهما استثناء يؤكد القاعدة.

لو كان كل ميت حياً يُرزق لما كان لتخصيص الشهداء معنى، ولما قيل «ولا تحسبنّ»؛ فالخطاب يصحّح ظناً هو الأصل في غيرهم: أنهم أموات. وقد قيّدت آية البقرة تلك الحياة بقولها «ولكن لا تشعرون»؛ فهي حياة من غير جنس ما نعرف، «عند ربهم» لا في قبورهم.

وهذا يُلزمنا بتعديل نصرّح به: أطروحة الكتاب هي الأصل في الموتى، ويُستثنى منها من استثناه القرآن.

وقد يُقال: في هذا تناقض. استشهدتم بالمخدَّر الذي لا يشعر ودماغه حي، وقلتم الميت أولى. فكيف يحيا الشهيد وقد بلي دماغه؟

والجواب أن مثال التخدير لم يكن دليلنا قط، ولم نقل إن الوعي بلا دماغ مستحيل. المثال يصف العادة التي أجرى الله عليها خلقه: النفس تعي ما دام الجسد حياً، فإذا قُبضت لم تعِ، إلا ما أخبر به الشرع مما يكون عند الموت. والدليل على أن الموتى على هذه العادة هو القرآن: «لبثنا يوماً أو بعض يوم»، «من بعثنا من مرقدنا». وحياة الشهداء خبرٌ

من القرآن نفسه عن فعل خاص يفعله الله بهم «عند ربهم»، لا عن بقاء طبيعي لوعيهم. وهي عند من آمن بالبعث ليست أعجب منه؛ فالبعث كله حياة يعطيها الله بعد أن يبلى الجسد. فالأصل ثابت بالنص، والاستثناء ثابت بالنص، وكلاهما فعل الله.

قوم نوح وصاحب يس

هنا تخدمنا أطروحة الكتاب مباشرة.

«أُغرقوا فأُدخلوا ناراً»: التعقيب صحيح من جهة الغريق. آخر لحظة في دنياه موصولة بأول لحظة في آخرته، وليس بينهما في شعوره شيء. فالفاء تصف ما يجده هو. والقرآن يخبر عن الآخرة بصيغة الماضي لتحقق وقوعها.

ومثله «قيل ادخل الجنة». والرجل فوق ذلك مقتول في سبيل الله، فهو داخل في استثناء الشهداء.

المنافقون

«سنعذبهم مرتين» ليس فيها ذكر القبر. والمفسرون مختلفون: عن مجاهد أنهما القتل والسبي، وفي رواية عنه الجوع وعذاب القبر[2]. فالقول بأن المرتين في الدنيا قول منقول عن السلف، وهو الأقرب إلى لفظ «ثم يُردّون»؛ فالردّ يكون مما قبل الموت إلى ما بعده.

بقية الآيات

- **«اليوم تُجزون عذاب الهون»** قيلت والظالمون «في غمرات الموت». فهي في سكرات الموت نفسها، وهي من الدنيا. ثم إن من لا يجد المدة يتصل عنده يوم موته بيوم جزائه.
- **«عذاباً دون ذلك»** يفسرها قوله: «ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون» (السجدة 21). العذاب الأدنى في الدنيا، بدليل «لعلهم يرجعون»؛ ولا رجوع بعد الموت.
- **«بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة»** ليس في لفظها قبر. حملُها عليه جاء من الحديث لا من الآية.

قرائن أخرى من القرآن

ونضيف إلى ما مضى خمس قرائن، بعضها نبّه إليه غيرنا وبعضها مما ظهر لنا عند التدبر.

الأولى: الأجل مضروب ليوم بعينه. «لأيّ يوم أُجّلت * ليوم الفصل» (المرسلات 12-13). الفصل بين الناس مؤجَّل إلى يومه بنص الآية.

الثانية: الناس يرون أعمالهم يومئذ. «يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليُروا أعمالهم» (الزلزلة 6). فهم قبل ذلك اليوم لم يروها.

الثالثة: الحساب لم يُغلق بعده. «ونكتب ما قدّموا وآثارهم» (يس 12). أثر الإنسان يبقى بعده: علم علّمه، وولد ربّاه، وسنّة حسنة أو سيئة سنّها. وكل ذلك يُكتب له أو عليه إلى قيام الساعة. فكتابه عند موته لم يكتمل؛ والجزاء على كتاب لم يكتمل جزاء على بعض الحساب[3].

الرابعة: القرآن عدّ الموتتين بنفسه. استدل الإيجي بقوله «أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين» على حياة في القبر، فجعل العدّ: موتاً، ثم حياة في القبر، ثم موتاً فيه، ثم حياة للحشر. لكن القرآن فسّر العدد في موضع آخر تفسيراً لا يحتمل: «وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم» (البقرة 28). الموتة الأولى ما قبل الميلاد، والحياة الأولى الدنيا، والموتة الثانية هذه التي نعرف، والحياة الثانية البعث. وعلى عدّ الإيجي تسقط حياة الدنيا من الحساب، وهي أولى الحيوات بالذكر.

الخامسة: لغة المفاجأة. يقوم المبعوثون فيسألون: «من بعثنا من مرقدنا» (يس 52)، ويقسم المجرمون أنهم «ما لبثوا غير ساعة» (الروم 55)، ويقول من أوتي كتابه بشماله: «يا ليتني لم أوتَ كتابيه * ولم أدرِ ما حسابيه» (الحاقة 25–26)، و«بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون» (الزمر 47). هذه لغة من أفاق على أمر لم يكن فيه، لا لغة من قضى قروناً في عذاب يعرف سببه ومآله. وللمثبتين جواب نذكره: أن هول القيامة يُنسي ما قبله، كما قال بعض المفسرين في آيات اللبث (الفصل الخامس). فهذه قرينة ترجّح ولا تحسم.

أدلة النظر

- «**لا استحالة فيه**». صحيح، ولم نقل بالاستحالة. نقول إن ظاهر آيات اللبث والمرقد يرجّح عندنا خلافه.
- **النائم يرى ولا يظهر عليه شيء**. وهذا القياس يشهد لما نقول أيضاً. النائم نفسه لا يجد من ساعات نومه إلا لحظات، وأصحاب الكهف لم يجدوا من ثلاثة قرون إلا بعض يوم. فإن كان البرزخ كالنوم فهو يثبت ما نقول.
- **العدل**. نحن نرى أن الجزاء الأخير مؤجل إلى يومه. أما طول المدة على من مات قديماً، فالجواب عنه لا يحتاج نفي عذاب القبر، يكفي فيه أن الميت لا يجد طول المدة، وهذه أطروحة الكتّاب التي تسلم على كل قول.

وبقيت الأحاديث، وهي أقوى ما عند المثبتين بعد آية آل فرعون. وهي موضوع الفصل التالي.

هوامش الفصل الحادي عشر

1. تفسير ابن كثير، غافر 46، وفيه الرواية عن مسند أحمد. وجواب ابن كثير عن الإشكال، وحاصله أن الآية في عرض الأرواح لا في عذاب الأجساد في القبور، مذكور في الموضع نفسه.
2. تفسير ابن كثير، التوبة 101. والتفسير الميسر يجعل الأولى في الدنيا والثانية في القبر.
3. نبّه محمد أكديد في مقاله المذكور إلى آيتي المرسلات والزلزلة، وإلى أن الأعمال تزيد بعد الموت بحديث «من سنّ سنة حسنة». والاستدلال بآية يس من عندنا.

الفصل الثاني عشر

الأحاديث — ماذا تواتر؟

«الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه» (الزمر 18)

ماذا تقول أحاديث القبر، وماذا اتفقت عليه؟

الأحاديث

لا ننكر كثرتها، ولا نقول إنها موضوعة. لكن النظر في أي حديث يمرّ بثلاث درجات لا يغني بعضها عن بعض: أن يثبت عن النبي ﷺ، وأن يصح فهمه، وأن يدل على المسألة التي يُستدل به عليها. فقد يثبت الحديث ويصح فهمه، ولا يدل مع ذلك على مدة العذاب أو النعيم. وعلى هذا نقول ثلاثة أشياء.

منهج عائشة. كانت تعرض الرواية على القرآن، وهي نفسها ممن روى الاستعاذة من عذاب القبر، فنحن نحتج بطريقتها في العرض، لا بأنها نفت المسألة. ردّت رواية تعذيب الميت ببكاء أهله بقوله تعالى «ولا تزر وازرة وزر أخرى»، وردّت سماع قتلى بدر بقوله «وما أنت بمسمع من في القبور»[1]. فعرضُ أحاديث الباب على القرآن منهج له سلف.

في الروايات نفسها ما يشهد لنا. الرواية التي ساقها ابن كثير عند آية آل فرعون، وقد مرّت في الفصل السابق، فيها نفي العذاب قبل يوم القيامة أولاً. فأحاديث الباب ليست على نسق واحد.

ومن ذلك حديث أبي هريرة في سؤال القبر، وقد حسّنه الترمذي: أن المؤمن بعد السؤال يُقال له: «نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[2]. فالمؤمن في روايات المثبتين أنفسهم نائم إلى البعث. والحديث نفسه يذكر للمنافق عذاباً متصلاً إلى البعث؛ فهو حجة لهم في شطره، وشاهد لنا في شطره الآخر: أن الرقاد حتى البعث ليس غريباً عن نصوص الباب.

ماذا تواتر بالضبط؟

هنا أقوى ما عند المثبتين، ويستحق أن نقف عنده على مهل.

قال ابن القيم إن أحاديث عذاب القبر ومساءلة الملكين «كثيرة متواترة»، وأوردها الكتّاني في كتابه الذي جمع فيه الأحاديث المتواترة[3]. ولا نجادل في هذا. الروايات كثيرة، ورواتها من الصحابة كثيرون، ولا يُعقل أن يتواطأ هذا العدد على الخطأ.

لكن للتواتر قاعدة يعرفها أهل الحديث أنفسهم. إذا اختلفت ألفاظ الروايات وتفاصيلها، فالمتواتر منها هو ما اتفقت عليه كلها، ويسمّونه «القدر المشترك». أما التفاصيل التي ينفرد

بها بعضها فتبقى على درجتها: صحيحة أو حسنة أو ضعيفة. وقد عبّر عن ذلك الكشميري حين قال إن عذاب القبر «متواتر القدر المشترك»[4].

فما القدر المشترك؟ لنضع الروايات المشهورة جنباً إلى جنب، ونسأل سؤالاً واحداً لم يُطرح عليها كثيراً: **متى يقع ما تصفه؟**

- الميت «ليسمع قرع نعالهم» إذا انصرفوا عنه، ثم يأتيه الملكان[5]. هذا **عند الدفن.**
- «إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي»، ويُقال له: «هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[5]. عرضٌ **يتكرر**، وغايته البعث.
- «نم كنومة العروس... حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك». سؤال، ثم **نوم إلى البعث.**
- وفي حديث البراء، كما سيأتي، تصعد الروح وتعود **عند الموت**، ثم يُسأل الميت، ثم يُفتح له باب إلى مقعده.

ما الذي يلفت النظر هنا؟ أن أكثر التفصيل في الروايات عند **طرفين**: لحظة الموت والدفن، ويوم البعث. وما بينهما يأتي غالباً في كلمة واحدة: «حتى». حتى يبعثك الله، حتى يبعثه الله من مضجعه.

وفي الروايات ما يخالف هذه الملاحظة. ففي حديث القبرين، وقد مرّ في الفصل العاشر، مرّ النبي ﷺ بقبرين فأخبر أن صاحبيهما يُعذَّبان، ورجا أن يُخفَّف عنهما ما دامت

الجريدة رطبة، وهذا عذاب قائم بعد الدفن بزمن. وعرض المقعد «بالغداة والعشي» يتكرر ولا يقع مرة واحدة. فمن الروايات ما يدل على الامتداد، ومنها ما يدل على الرقاد.

فالذي اتفقت عليه الروايات كلها، والله أعلم، أن للإنسان بعد موته شأناً حقاً: فتنة وسؤالاً، ورؤية لما ينتظره. وهذا لا يمسّ أطروحة الكتاب في شيء؛ فهي لا تنفي ما في القبر، بل تقول إن الميت لا يجد طول المدة. أما أن كل ميت يجد عذاباً أو نعيماً متصلاً يعدّ قرونه كما نعدّها، فالروايات فيه ليست على نسق واحد: بعضها يدل عليه، وبعضها يقول «نم».

ومن يرى أن العذاب عند المنافق والكافر متصل إلى البعث يجد في بعض الروايات ما يسنده، وهو قول الجمهور. ولذلك نرجّح ما نرجّحه ولا نجزم به. والصورة التي نميل إليها أقرب إلى مسافر في رحلة ليلية طويلة: يُستقبل عند الصعود، ويُقال له كلمة تطمئنه أو تخيفه، ثم ينام، ولا يفتح عينه إلا عند الهبوط. الرحلة طالت ساعات على الأرض، ولم تطل عليه.

حديث البراء: القصة كاملة

هذا أطول أحاديث الباب وأكثرها تفصيلاً، ومن حقه أن يُروى كما هو قبل أن يُناقش.

خرج الصحابة مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار. وصلوا إلى القبر ولم يكن اللحد قد حُفر بعد، فجلس النبي وجلسوا حوله، ساكتين كأن على رؤوسهم الطير. وكان في

يده عود ينكت به الأرض. ثم رفع رأسه وقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرتين أو ثلاثاً.

ثم وصف ما يجري للمؤمن إذا حضره الموت: ملائكة بيض الوجوه معهم كفن من الجنة، وروح تخرج «كما تسيل القطرة من فِي السقاء»، ويُصعد بها من سماء إلى سماء، ثم يُقال: أعيدوه إلى الأرض. فتُعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ ومن هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيجيب. فيُفرش له من الجنة، ويُفتح له باب إليها، ويأتيه رجل حسن الوجه يقول: أنا عملك الصالح. فيقول المؤمن: «رب أقم الساعة». ووصف للكافر عكس ذلك كله، وفيه أنه يقول: «رب لا تقم الساعة»[6].

ماذا قال فيه أهل الحديث؟ رواه أحمد بطوله وأبو داود مختصراً، وصححه الحاكم والألباني. وتكلم في إسناده ابن حبان وابن حزم، وأجاب عنهما ابن القيم[6]. وانتهت دراسة حديثة جمعت ما قيل فيه إلى أن علله لا تقدح فيه[7].

فنحن لا نطعن في إسناده. نأخذه حديثاً مقبولاً عند جمهور المحدثين، ونقرؤه.

وكيف نقرؤه؟ نلاحظ فيه ثلاثة أمور.

الأول أن أحداثه كلها تقريباً **عند الموت**: نزول الملائكة، وخروج الروح، والصعود بها، وإعادتها، والسؤال. هذا ما يجده الإنسان على عتبة الموت، وهو ما قلنا إنه حق.

والثاني أن المؤمن يقول: «رب أقم الساعة». وهذا موضع قوة للمثبتين لا نتجاوزه؛ فهو يدل على أن للميت إدراكاً بعد السؤال يتشوّف فيه إلى القيامة. لكن تأمل ما يطلبه: إنه

لا يطلب أن يطول ما هو فيه، بل أن تقوم الساعة. ولو استجيب له لما وجد من المدة شيئاً. وهذا يلتقي مع أطروحة الكتاب: كم يجد الميت من المدة؟ الحديث لا يقول. وآيات اللبث تقول: يوماً أو بعض يوم.

والثالث أن الحديث لا يصف شيئاً يجري بعد ذلك إلى القيامة. يقف عند فتح الباب، ويسكت عما بين ذلك وبين الساعة.

أين نقف إذن؟ صاحب الترجيح الذي نميل إليه يقرأ الحديث على أنه وصف لما يكون عند الموت، ويقف عند ذلك. وصاحب الأطروحة وحدها يقبله كله، ثم يقرأ معه آيات اللبث. وكلاهما يخرج بالنتيجة نفسها التي تهمّ هذا الكتاب: من مات قبل ألف سنة ومن مات أمس يقفان يوم البعث، وكلاهما يقول: يوماً أو بعض يوم.

الخلاف داخل أهل السنة أنفسهم

من يقرأ كتب المثبتين بتأنٍّ يجد أن المتفق عليه بينهم أضيق مما يُظن. اتفقوا على أصل الإثبات، ثم اختلفوا في كل ما بعده.

على الروح أم على الجسد؟ ذكر ابن حجر أن البخاري لم يتعرض في ترجمته لكون العذاب على الروح وحدها أو عليها وعلى الجسد، وأن في المسألة خلافاً مشهوراً عند المتكلمين؛ وعلّل سكوت البخاري بأن الأدلة التي يرتضيها ليست قاطعة في أحد الأمرين[8]. فالكيفية عند إمام المحدّثين نفسه موضع ظن لا قطع.

حسّي أم معنوي؟ والقائلون بأنه على الروح جعله بعضهم كحال النائم: يرى ما يسوؤه أو يسرّه، ولا يمسّ جسده شيء.

عذاب أم عرض؟ وهنا قول الشيخ محمد متولي الشعراوي، وهو من أعلام أهل السنة في عصرنا. نُقل عنه أن القبر ليس فيه عذاب، وعلّته: «لا عذاب إلا بعد حساب»، والحساب في الآخرة، وأن ما في القبر عرضٌ لمنازل الآخرة، يرى فيه الميت مقعده فيُسرّ أو يُساء. واستدل بآية آل فرعون نفسها: «يُعرضون عليها»[9]. ونُقل عنه في موضع آخر أنه سمّى هذا العرض نفسه عذاباً، لأن رؤية الإنسان ما ينتظره عذاب. وقد عدّه جامع ذلك الكتاب أحد قولين لأهل السنة، مرجوحاً عنده غير مردود، وأورد له من الآثار قول حذيفة: في القبر حساب وفي الآخرة عذاب.

ونوافق الشيخ في أصله: أن الجزاء الأوفى بعد الحساب، وهو ما قررناه في الفصل الثالث من لوازم العدل. ونختلف معه في امتداد العرض بعد الموت؛ فنحن نرجّح أن ما بعد السؤال رقاد.

والذي يخرج به القارئ من هذا: أن القدر المقطوع به عند المثبتين أنفسهم هو أن للميت شأناً قبل البعث. أما أنه عذاب حسّي متصل على الجسد من الموت إلى القيامة فقول من أقوالهم، لا إجماعهم.

ما يثبت وما لا يثبت

1. **ثابت:** ليس في القرآن نص عام على عذاب أو نعيم يجده كل ميت في قبره. وكيفية ما في القبر مختلَف فيها بين المثبتين أنفسهم. والنصوص العامة تقول: موت، ثم بعث، ثم يُوفّى الأجر.
2. **راجح:** الأدلة الخاصة، آل فرعون والمنافقون وقوم نوح، تحتمل قراءة توافق الأطروحة. ولا ندّعي أنها القراءة الوحيدة.
3. **مستثنى بنص:** الشهداء أحياء عند ربهم. نأخذ الآية على ظاهرها ونجعلها استثناء.
4. **باقٍ على الخلاف:** هل يجد الميت ما في القبر ممتداً إلى البعث؟ المتواتر من الأحاديث أن له بعد موته شأناً حقاً. أما الامتداد فموضع اجتهاد، ومن رآه متصلاً لن يقنعه هذا الفصل، ونحترم قوله.

وبهذا يستقر ما نقول على درجتين.

- **أطروحة الكتاب، وهي تسلم على كل قول:** الميت لا يعيش زمن الأحياء، ولا يجد طول المدة؛ فمن مات قبل ألف سنة ومن مات قبل يوم يقومان وكلاهما يقول: يوماً أو بعض يوم. وهذه تصحّ حتى عند من يثبت للميت إدراكاً ما في قبره؛ فآيات اللبث نص فيها. وقد أجاز القاضي عبد الجبار نفسه أن يكون العذاب بين النفختين لا في المدة كلها.

- **ترجيحنا فوقها:** ما يكون عند الموت من سؤال وعرض حق، ثم لا يجد الميت بعده شيئاً حتى يُبعث، كما في حديث «نم كنومة العروس... حتى يبعثه الله»، إلا من استثناه القرآن. فلا ننفي فتنة القبر وسؤاله؛ نرجّح أن ما بعدهما رقاد. وفيه نخالف الجمهور، ونعرضه رأياً مرجَّحاً لا عقيدة نلزم بها أحداً.

فمن لم يوافقنا على الترجيح فالأطروحة تكفيه، وهي سؤال الكتاب وجوابه.

ويبقى سؤال يسأله كل من سمع قولاً لم يألفه: هل قال بهذا أحد قبلكم؟

هوامش الفصل الثاني عشر

1. صحيح البخاري (1288، و1371، و3978–3981)، وصحيح مسلم (929 و932).
2. الترمذي، «الجامع»، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (1071)، وقال: حسن غريب. وابن حبان (3117). وحسّنه الألباني في «صحيح الترمذي».
3. ابن القيم، «الروح»، المسألة السادسة. والكتاني، «نظم المتناثر من الحديث المتواتر»، كتاب الجنائز.
4. نقله عن الكشميري في «فيض الباري» صاحب رسالة «عذاب القبر ونعيمه» على موقع صيد الفوائد.
5. حديث أنس في سماع قرع النعال: البخاري، كتاب الجنائز (1338). وحديث ابن عمر في عرض المقعد: البخاري، كتاب الجنائز (1379)، ومسلم، كتاب الجنة (2866).

6. أحمد، «المسند» (4/287-288)؛ وأبو داود، كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (4753)؛ وصححه الألباني في «صحيح أبي داود». وكلام ابن القيم في ردّ تعليل ابن حبان وابن حزم في «تهذيب السنن».

7. سامي بن أحمد الخياط، «علل حديث البراء بن عازب في احتضار الإنسان وفتنة القبر: جمعاً ودراسة»، دار المنظومة.

8. ابن حجر، «فتح الباري»، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (3/233).

9. كلام الشيخ الشعراوي في مقطع مسجّل متداول، نقل نصه موقع «مصراوي» (9 فبراير 2025)، ونقله بلفظه «عذاب القبر عند أهل السنة» ص 40-41 وناقشه ص 42-57. ونقل عنه موقع «صدى البلد» في موضع آخر أن العرض على النار سُمّي عذاباً. ولم نقف على المسألة في «خواطره» المطبوعة. وأثر حذيفة عزاه المصدر نفسه إلى مصنف ابن أبي شيبة و«الحاوي للفتاوي» للسيوطي (2/231).

الفصل الثالث عشر

من قال بهذا قبلنا

«وفوق كل ذي علم عليم» (يوسف 76)

هل سبق أحد إلى هذا الفهم؟

سلف هذا القول عند المتكلمين

ليس ما نذهب إليه قولاً بلا سلف. في كتاب «المواقف» للإيجي وشرحه، وهو من أمهات كتب أهل السنة، ثلاثة أقوال قديمة قريبة منه[1].

- **أن العذاب بين النفختين.** نُسب إلى أبي الهذيل العلاف وبشر بن المعتمر أن الكافر يُعذَّب فيما بين النفختين. وفي نقل ابن القيم عن أبي الهذيل أن المساءلة في القبر إنما تقع في ذلك الوقت[2]. أما عبارة شارح «المواقف» فهي: يُعذَّب «فيما بين النفختين أيضاً»، وهي تحتمل أن ذلك زيادة على عذاب قبله. فإن صحّ النقل الأول كان العذاب في آخر المدة لا في المدة كلها، واستوى فيما قبل ذلك من مات قبل ألف سنة ومن مات أمس.

- **أن الآلام تجتمع بلا إحساس.** ونُقل عن بعض المتكلمين أن الآلام تجتمع في أجساد الموتى وتتضاعف من غير أن يحسّوا بها، فإذا حُشروا أحسّوا بها دفعة واحدة. وقد عدّه شارح «المواقف» إنكاراً للعذاب قبل الحشر، وردّه. وهذا القول يكاد يكون أطروحة هذا الكتاب بلغة القدماء: لا إحساس قبل البعث.
- **أن الميت لا يسمع ولا يدرك.** وهي حجة ضرار بن عمرو ومن وافقه.

فالمسألة كانت مطروحة في القرون الأولى، وتكلم فيها رجال من أهل النظر، ولم يُخرجهم أحد بذلك من الملة.

من سبق إلى هذا القول

ليست الفكرة جديدة، ولا ندّعي السبق إليها. ونذكر من قال بها أو بقريب منها، من الأقرب إلينا إلى الأبعد.

في كتب التراث. درست الباحثتان جين سميث وإيفون حداد ما كتبه المسلمون في الموت والبعث قديماً وحديثاً، وخلصتا إلى أن قدراً كبيراً من التراث الإسلامي افترض أن أكثر الناس، بعد ما يكون في القبر من سؤال وعذاب، يصيرون إلى حال من اللاوعي حتى يوم القيامة؛ وذكرتا أن لذلك استثناءات كثيرة. ومن شواهدهما: قول الملكين للناجي بعد السؤال «نم كنومة العروس»؛ وقول رابعة العدوية لنفسها إنها توشك أن تنام نومة لا تقوم منها إلا على صيحة يوم النشور؛ وما في «الدرة الفاخرة» المنسوبة إلى

الغزالي من صنف يُنيمهم الله حتى البعث، وصنف يُفتح له باب إلى الجنة فلا يشعر بمرور الشهور والأعوام والدهور. وقالتا في آيات اللبث إن يوم القيامة يُظهر أن الزمن ليس مدة ثابتة[3]. فالترتيب الذي رجّحناه، شأنٌ عند الموت ثم رقدة إلى البعث، معروف في كتب التراث، وإن اختلفنا مع أصحابها في مقدار ما يسبق الرقدة.

من علماء العصر. الشيخ محمد متولي الشعراوي قال صريحاً إن الميت لا يشعر بالزمن أبداً، كالنائم الذي يستيقظ فلا يدري كم نام، واستدل بقول أصحاب الكهف. والشيخ ابن عثيمين قال إن الزمن عند الميت يذهب سريعاً كأنه ليس بشيء، واستدل بصاحب القرية. وقال الشيخ خالد الجندي سنة 2025 إن عبارة «لبثنا يوماً أو بعض يوم» تكررت في القرآن للدلالة على أن الإنسان لا يشعر بمرور الزمن بعد موته[4].

فأطروحة الكتاب ليست قولاً شاذاً، قال بها أعلام من أهل السنة في عصرنا. والذي نزيده عليهم، ونخالف فيه الجمهور، هو الترجيح وحده؛ فالشعراوي وابن عثيمين يثبتان مع ذلك ما في القبر، كلٌّ بطريقته.

من أصحاب القراءات المعاصرة. الدكتور محمد شحرور بنى منهجه على نفي الترادف: لكل لفظ في القرآن معنى لا يؤديه غيره، ومن أمثلته عنده أن الموت غير الوفاة[5]. وهذا قريب مما نسلكه في التفريق بين الروح والنفس، كما يأتي في الفصل الرابع عشر. والدكتور أحمد صبحي منصور كتب أن البرزخ نوم يستيقظ منه الجميع يوم البعث وهم يحسبون أنهم ناموا يوماً أو بعض يوم، واستثنى عذاباً خاصاً بفرعون وقوم نوح، ونعيماً لمن

قُتــل في سبيل الله[6]. وهــو يكاد يطــابق ترجيحنــا، وإن اختلفت الطريــق. ونذكرهما بإنصاف وتحفظ معاً: لكل منهما آراء في مسائل أخرى خالفه فيها جمهور العلماء مخالفة شديدة، ولا نتبنى منهجهما، ولا نأخذ من أحد إلا ما قام عليه الدليل.

من الفلاسفة. أقدم من صاغ هذا المعنى أرسطو. قال في كتاب «الطبيعة» إننا لا ندرك الزمن إلا بإدراك التغير، فإذا لم نشعر بتغير لم نشعر بأن زمناً مضى. ومثّل لذلك بقوم تحكي أساطير اليونان أنهم ناموا عند قبور الأبطال في سردينيا، فلما أفاقوا وصلوا «الآن» الأول بـ«الآن» الأخير، وأسقطوا ما بينهما لأنهم لم يدركوه[7]. وهذا ما نقوله في الميت: يصل لحظة موته بلحظة بعثه. وانتقل مثاله إلى الفلسفة العربية عن طريق ابن سينا، وأعاد النظر فيه أبو البركات البغدادي[8]. وقال أوغسطين إن الزمن يُقاس في النفس: الماضي ما تحفظه الذاكرة، والمستقبل ما يترقبه الانتظار[9]. فمن قُبضت نفسه لم يبقَ فيه ما يُقاس به الزمن.

عند أهل الكتاب. في المسيحية مذهب قديم يُعرف برقاد النفس: أن الميت لا يعي شيئاً حتى القيامة. قال به مارتن لوثر ووليم تندل في القرن السادس عشر، وردّ عليه كالفن، وهو اليوم عقيدة السبتيين وطوائف أخرى[10]. وفي القرن العشرين قال اللاهوتي السويسري أوسكار كولمان، وهو يفسّر تسمية كتابهم الموتى «راقدين»، إن إيقاع الزمن قد يختلف عندهم عما هو عند الأحياء، فتقصر عليهم مدة الانتظار[11]. وفي كتاب لأحد

السبتيين صدر سنة 1871 أن من المسلمين من قال إن النفس ترقد في التراب حتى النفخة[12]، وهي شهادة ناقل من خارج، نذكرها ولا نحتج بها.

وفي كتبهم نظائر تستوقف قارئ القرآن: في سفر دانيال أن الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، وفي المزامير أن ألف سنة في عيني الله كيوم أمس، وفي رسائل بولس أن الأموات يقومون «في طرفة عين»، وفي التلمود رجل صالح نام سبعين سنة، وقصة الفتية النائمين معروفة عندهم باسم نيام أفسس[13]. وعندهم، كما عندنا، نصوص خاصة تذكر حياة لبعض الموتى، وعليها بنى جمهورهم القول بنعيم أو عذاب قبل القيامة. فالخلاف الذي في هذا الكتاب وقع عند غيرنا أيضاً، وللسبب نفسه.

ونذكر هذا كله قرينةً لا دليلاً: أصحابه وصلوا إليه من كتابهم الذي يسمّي الموت رقاداً، كما وصلنا نحن من آيات تسمّيه مرقداً ولبثاً، ودليلنا القرآن. والأديان تتكلم في ثلاثة أسئلة: هل بعد الموت حال؟ وهل فيها وعي؟ وهل يجد صاحبها مرور الزمن؟ وأكثرها يجيب عن الأولين ويسكت عن الثالث. والقرآن هو الذي سأله صريحاً: «كم لبثتم؟»، وحكى الجواب.

والذي نرجو أن يكون لهذا الكتاب: أنه جمع آيات المسألة في موضع واحد، وعرض أدلة المخالف بإنصاف، وفرّق بين أطروحة تسلم على كل قول وترجيح يخالف فيه الجمهور، وبنى عليه ما يلزم منه في العدل وفي طريقة العيش.

ما نتفق فيه مع الوعّاظ

كُتبت في أهوال القبر رسائل وعظية كثيرة، غايتها أن يتذكر الإنسان الموت فيصلح عمله. ونحن مع هذه الغاية كلها. ونوافق على ما يُروى من أن القبر أول منازل الآخرة؛ فهو عندنا كذلك: من دخله لم يبقَ بينه وبين الآخرة شيء يجده.

والفرق في الطريق. الواعظ يخوّف بما في القبر. ونحن نقول ما هو أدعى إلى الحذر: ليس بعد الموت مهلة ولا مدة تمرّ. يغمض الإنسان عينه على عمله، ويفتحها على حسابه.

هوامش الفصل الثالث عشر

1. الإيجي، «المواقف»، بشرح الشريف الجرجاني، الموقف السادس، المرصد الثاني (في المعاد)، المقصد الحادي عشر (في عذاب القبر)؛ وفيه أيضاً استدلاله بآية «أمتّنا اثنتين».
2. ابن القيم، «الروح»، المسألة السادسة، فصل الإيمان بعذاب القبر.
3. Jane Idleman Smith and Yvonne Yazbeck Haddad, *The Islamic Understanding of Death and Resurrection* (Albany: State University of New York Press, 1981)، ص 49 و52–53. وكلامهما في آيات اللبث ص 5. وكتاب «الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة» يُنسب إلى الغزالي، وفي نسبته كلام.
4. كلام الشعراوي في تسجيل متداول نقلته مواقع إخبارية عدة، منها «صدى البلد» و«فيتو». وكلام ابن عثيمين في «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (17/428)، وفيه استدلاله بصاحب القرية وأصحاب الكهف وآية النازعات، مع إثباته عذاب القبر ونعيمه. وكلام خالد الجندي في برنامج «لعلهم يفقهون»، 16 أبريل 2025، كما نقلته «اليوم السابع» و«الدستور».
5. يُنظر: محمد شحرور، «الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة» (1990). وفي منهجه في نفي الترادف وأمثلته: عبد الغني سلامة، «عن محمد شحرور»، جريدة الأيام.

6. أحمد صبحي منصور، «عذاب القبر والبرزخ»، موقع أهل القرآن.

7. أرسطو، «الطبيعة»، المقالة الرابعة، 11 (218b21–219a1).

8. Marienza Benedetto, «Rethinking time through the episode of the Sleepers: from Aristotle to Abū'l-Barakāt al-Baġdādī», *Mediaevalia. Textos e Estudos*, 2023.

9. أوغسطين، «الاعترافات»، الكتاب الحادي عشر، الفصلان 27–28.

10. يُنظر: Bryan W. Ball, *The Soul Sleepers: Christian Mortalism from Wycliffe to Priestley* (2008)؛ و Norman T. Burns, *Christian Mortalism from Tyndale to Milton* (Harvard University Press, 1972). ورسالة كالفن عنوانها *Psychopannychia* (1542).

11. Oscar Cullmann, *Immortality of the Soul or Resurrection of the Dead? The Witness of the New Testament* (London: Epworth Press, 1958)، Chapter 4. وأصله محاضرة ألقاها في جامعة هارفارد سنة 1955.

12. D. M. Canright, *History of the Doctrine of the Immortality of the Soul* (Battle Creek, Mich.: Seventh-day Adventist Publishing Association, 1871)، Chapter I.

13. سفر دانيال 12: 2؛ والمزامير 90: 4؛ والرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس 15: 51–52؛ والتلمود البابلي، مبحث «تعنيت» 23أ؛ وعظة يعقوب السروجي (ت 521) في فتية أفسس.

الباب الرابع

الروح والنفس ولحظة الموت

ما الذي يموت في الإنسان؟ وما الذي يُتوفّى؟

الفصل الرابع عشر

الروح والنفس في القرآن

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي» (الإسراء 85)

ما الذي يموت في الإنسان: روحه أم نفسه؟

ما الذي يموت؟

ربّحنا في الباب السابق أن الميت، بعد ما يكون عند موته، لا يجد شيئاً حتى يُبعث. وهذا يفتح سؤالاً لا مفر منه: من هو هذا الذي لا يجد؟ أهو الجسد، أم الروح، أم النفس؟ وهل الروح والنفس شيء واحد؟

الشائع على الألسنة أن الإنسان «تخرج روحه» عند الموت. لكن القرآن لا يقول ذلك بهذا اللفظ في موضع واحد. القرآن يقول: «كل نفس ذائقة الموت»، ويقول: «الله يتوفى الأنفس»، ويقول: «أخرجوا أنفسكم». وهذا الفرق في الاستعمال هو موضوع هذا الفصل.

الروح في القرآن

ترد كلمة الروح في القرآن في نحو عشرين موضعاً، وتدور على أربعة معانٍ، ليس فيها موضع واحد يُسند فيه الموت أو التوفّي إليها.

فهي الوحي والقرآن: «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا» (الشورى 52). وهي جبريل: «نزل به الروح الأمين» (الشعراء 193). وهي النفخة الإلهية في الإنسان: «فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي» (الحجر 29). وهي التأييد والنصرة: «وأيّدهم بروح منه» (المجادلة 22).

وتبقى آية الإسراء: «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» (85). المشهور أنها في روح الإنسان. وللمفسرين في المراد بها أقوال حكاها القرطبي: أكثر أهل التأويل على أنها روح الإنسان، وقال قتادة إنها جبريل، وقيل إنها القرآن؛ ورجّح القرطبي نفسه الإبهام[1]. والقول بأنها جبريل أو القرآن يسنده السياق، فما قبلها وما بعدها في تنزيل القرآن. وعلى القولين، الآية تغلق باب الخوض في ماهيتها، ولا تذكر لها موتاً ولا خروجاً.

وفي استعمال القرآن للكلمة ثلاث ملاحظات:

- **لا تُجمع.** ليس في القرآن «أرواح»؛ الروح فيه مفردة دائماً. أما النفس فتُجمع: أنفس ونفوس.

- **تُنسب إلى الله لا إلى الإنسان.** «من روحي»، «من روحه»، «روحنا»، «من أمر ربي». ولم يقل القرآن مرة «روح فلان» أو «أرواحهم».
- **لا تُوصف بموت ولا كسب ولا حساب.** ليس فيه روح تذوق الموت، ولا روح تُجزى بما كسبت.

النفس في القرآن

النفس في القرآن هي الإنسان نفسه من حيث هو ذات تعي وتختار وتُسأل. وإليها وحدها يُسند كل ما يتصل بالموت.

ما يُسند إلى النفس	النص	الموضع
ذوق الموت	«كل نفس ذائقة الموت»	آل عمران 185، الأنبياء 35، العنكبوت 57
الموت بإذن الله	«وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله»	آل عمران 145
التوفّي	«الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها»	الزمر 42
الإخراج عند الموت	«والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم»	الأنعام 93
الأجل	«ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها»	المنافقون 11

ما يُسند إلى النفس	النص	الموضع
الجهل بمكان الموت	«وما تدري نفس بأي أرض تموت»	لقمان 34
الرجوع إلى الله	«يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك»	الفجر 27-28
الكسب والحساب	«كل نفس بما كسبت رهينة»	المدثر 38

فالنفس هي التي تموت وتُتوفّى وتُبعث وتُحاسب. وهي التي تنام أيضاً؛ فآية الزمر جمعت النوم والموت في فعل واحد واقع على الأنفس: ما يغيب في النوم هو نفسه ما يغيب في الموت.

أقوال العلماء: شيء واحد أم شيئان؟

المسألة خلافية قديمة، والإنصاف يقتضي أن نذكر أن الجمهور على خلاف ما نختار.

القول الأول: هما شيء واحد. نسبه ابن القيم إلى الجمهور[2]. وقال ابن عبد البر إن العرب تضع كلاً من اللفظين موضع الآخر[3].

القول الثاني: هما متغايران. نقل ابن حجر عن ابن العربي المعافري أن التغاير هو الحق[3].

قول ابن القيم: فرق في الصفات لا في الذات. النفس عنده تُطلق على الذات كلها، وتُطلق على الروح وحدها؛ أما الروح فلا تُطلق على البدن بحال[2].

ونحن نختار القول بالتغاير، لأنه الموافق لاستعمال القرآن، وهو جارٍ على قاعدة قديمة في نفي الترادف، نُسبت إلى ثعلب، وأحياها في عصرنا أصحاب القراءات المعاصرة، كما مرّ في الفصل الثالث عشر: لو كان اللفظان مترادفين لوقع أحدهما موقع الآخر ولو مرة، ولم يقع. لم يقل القرآن «كل روح ذائقة الموت»، ولم يقل «نفخت فيه من نفسي».

ويُعترض علينا بأن في الحديث نسبة القبض إلى الروح[4]. وجوابنا على قاعدة الكتاب: نحن نصف استعمال القرآن، والرواة يروون بالمعنى ويجرون على لسان العرب الذي يتبادل فيه اللفظان.

ما يترتب على التفريق

إذا صحّ أن الروح سرّ الحياة المنفوخ من أمر الله، وأن النفس هي الذات الواعية المكلّفة، ترتب على ذلك ثلاثة أمور تخدم أطروحة الكتاب.

1. **الذي ينقطع عنه الزمن هو النفس.** الزمن الذاتي صفة للذات التي تعي. فإذا تُوفّيت النفس انقطع زمنها، نائمةً كانت أو ميتة. ولا حاجة إلى القول بأن شيئاً في الإنسان يبقى يقظاً يعدّ القرون.
2. **سؤال «أين تذهب الروح» ليس سؤالنا.** القرآن أغلقه بقوله «من أمر ربي». والأطروحة لا تتوقف على جوابه؛ يكفيها أن النفس لا تجد المدة.

3. **القياس على النائم مأذون به.** النوم والموت كلاهما توفٍّ للنفس، فما اعتمدناه في الفصل السادس من قياس الميت على الراقد له أصل في القرآن نفسه.

ولا نزعم معرفة ماهية الروح، ولا ننفي أن يكون لله فيها شأن بعد الموت لا نعلمه. نقول فقط إن القرآن لم ينسب إليها شعوراً ولا عذاباً ولا انتظاراً.

عرفنا ما نقول ولماذا نقوله. وبقي أن نسمع غيرنا.

هوامش الفصل الرابع عشر

1. القرطبي، «الجامع لأحكام القرآن»، الإسراء 85. والبغوي، «معالم التنزيل»، الموضع نفسه، ورجّح أنها روح الإنسان.
2. ابن القيم، «الروح»، المسألة العشرون.
3. نقلاً عن مقال في إسلام أون لاين يجمع أقوال ابن عبد البر وابن العربي وابن تيمية.
4. صحيح مسلم (920)، من حديث أم سلمة: «إن الروح إذا قُبض تبعه البصر».

الباب الخامس

النظرية أمام الاعتراضات والأسئلة

تُعرض الفكرة هنا على أسئلة من لا يوافقها، بألفاظهم، ثم على أسئلة من فقد عزيزاً ويريد أن يعرف ماذا تعني له.

الفصل الخامس عشر

الاعتراضات والردود — من الذي يُحاسَب؟

«وجادلهم بالتي هي أحسن» (النحل 125)

ماذا يقول من لا يوافق، وبماذا نجيب؟

في هذا الفصل والذي يليه ثلاثة اعتراضات قديمة: سؤال الهوية الذي شغل الفلاسفة من لوك إلى بارفيت، وسؤال العدل الذي تكلم فيه المتكلمون منذ القرون الأولى، والقول بالتناسخ الذي عرفته أديان الهند وبعض الفِرَق. وهي تعود اليوم في صيغ شعبية يسمعها القارئ في المجالس وعلى وسائل التواصل. نعرض كل اعتراض بالصيغة التي يُقال بها اليوم، ثم نجيب. ونبدأ هنا بالأول، ونواجه أقوى صيغه الفلسفية أيضاً. وكلها تمسّ فكرة الكتاب: فإن لم يكن المبعوث هو الميت نفسه، أو لم يكن الحساب عدلاً، لم يبقَ لسؤال الانتظار معنى.

لماذا نعرض الاعتراض بلسان صاحبه؟

قد يقول قائل: الكل سيُحاسَب، وقد قال تعالى «وقفوهم إنهم مسؤولون» (الصافات 24)؛ فلا نجلس نشكك الناس، ومعنا الكتاب والسنة وكفى.

الآية نأخذها؛ هي نص في المسؤولية. أما المنهج فنخالفه بأدب. القرآن نفسه لم يسكت عن اعتراضات المنكرين. حكاها بألفاظهم ثم أجاب عنها: «وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم» (يس 78-79). وطالب بالبرهان: «قل هاتوا برهانكم» (البقرة 111). وأمر بالجدال بالتي هي أحسن (النحل 125).

والسؤال موجود سواء أجبنا أم سكتنا. السكوت يترك السائل وحده مع سؤاله. وهذا الكتاب قائم على أن الدين أمر بالتفكر والتدبر؛ فعرضُ الاعتراض كاملاً ثم الجواب عنه طاعة لهذا الأمر.

الاعتراض الأول: من الذي يُحاسَب؟

أصله

هذا من أقدم أسئلة الفلسفة: ما الذي يجعل الإنسان هو نفسه على مرّ السنين؟ أجاب جون لوك في القرن السابع عشر بأنها الذاكرة: أنت من تذكر ما فعلت. وذهب ديفيد هيوم أبعد، فشكّ في وجود «أنا» ثابتة أصلاً، ورأى الإنسان حزمة من الإدراكات

المتعاقبة[1]. وفي البوذية قبلهما تعليم «اللاذات». ثم جاء ديريك بارفيت في القرن العشرين بأقوى صيغ هذا الاعتراض، ونعرضها بعد قليل.

ما يقوله في صيغته الشعبية

يُقال اليوم في صيغة شعبية: «إذا لم تكن أنت شخصيتك، فمن الذي سيُحاسَب؟»[2]. وخلاصة هذا القول ست دعاوى:

1. الإنسان ينسب أفعاله إلى «أنا» ثابتة، والشخصية التي يُنسب إليها الفعل تتغير باستمرار: قناعاتها وأفكارها ونظرتها إلى الصواب والخطأ.
2. الشخصية نتاج عمليات الدماغ، والدماغ يتغير، فلا شخصية ثابتة ارتكبت الذنب لتحمل تبعته إلى الأبد.
3. الذنب نفسه نسبي: ما تعدّه ثقافة خطأً تعدّه أخرى عادياً. ويستدرك صاحب هذا القول بأن هذا لا يعني تساوي الأفعال أخلاقياً.
4. إذا توقف الدماغ ذهبت الذاكرة والشخصية والهوية، والعلم لا يثبت شخصية مستقلة تبقى بعده.
5. فلا أحد يقف للحساب.
6. وفكرة الحساب الأبدي قائمة على افتراض لم يُفحص: «أنا» ثابتة مستقلة عن كل ما يتغير.

الجواب

التغير يفترض ذاتاً تتغير. صاحب الاعتراض يخاطب سامعه بـ«أنت»، ويقول له: قناعاتك اليوم ليست قناعاتك قبل عشر سنوات. فهو يثبت صاحباً واحداً للحالين في الجملة التي ينفيه بها. ولو كانا شخصين لما صحّ أن يقال: تغيّر.

المسؤولية تتبع الاتصال، لا الثبات. لا أحد يشترط في المسؤول ألا يتغير. الناس كلهم، وصاحب الاعتراض منهم، يطالبون بالدَّين القديم، ويوفون بالعهد القديم، ويحاكمون على الجرم القديم. ولا يقبل أحد من مدينه عذر «كنت شخصاً آخر». والاتصال قائم: جسد واحد، وذاكرة موصولة، وكل حال من أحوال الإنسان ناشئة عن التي قبلها.

وللفعل طرف آخر لم يتغير. وهذه من أقوى الحجج: إن قتلتني ثم ندمت بعد خمس سنين، فندمك لا يعيد حياتي. الاعتراض ينظر إلى الفاعل وحده. والأذى وقع على إنسان بعينه، وبقي على حاله مهما تبدّل فاعله. فالمسؤولية حق للمظلوم قبل أن تكون صفة للظالم.

الحساب في القرآن يحسب للتغير حسابه. التوبة تمحو، و«يبدّل الله سيئاتهم حسنات» (الفرقان 70). فالمحاسَب سيرة كاملة بما فيها رجوع صاحبها، وليس لقطة جامدة من ماضيه. والاعتراض يفترض حساباً لا يعرف التوبة، وليس هذا حساب القرآن.

والنسبية محسوبة أيضاً. «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» (البقرة 286). «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً» (الإسراء 15). كل نفس تُسأل عما علمت وقدرت، لا عما جهلته بيئتها. وصاحب الاعتراض نفسه يقرّ بأن الأفعال لا تتساوى، فقد سلّم بأصل المعيار.

والدعوى الرابعة نوافق على نصفها. أطروحة هذا الكتاب أن النفس تُوفّى بالموت فلا تنتظر ولا تعدّ القرون. لسنا ممن يقول بشخصية يقظة تسبح بعد توقف الدماغ وتعدّ القرون. فالاعتراض يصيب ذلك القول ولا يصيبنا. أما أن العلم لا يثبت ما بعد الموت فصحيح، وهو لا ينفيه أيضاً. العلم يصف ما يُرصد، والبعث وعد بفعل لم يقع بعد.

فمن يُحاسَب إذن؟ النفس المُعادة بسجلها. «كما بدأنا أول خلق نعيده» (الأنبياء 104). «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» (الإسراء 13-14). الذي أنشأ الذات ولم تكن شيئاً يعيدها بذاكرتها وعملها. وقد كنا أمواتاً مرة قبل هذه: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون» (البقرة 28).

أقوى صيغة لهذا الاعتراض

ما مضى صيغة شعبية. وللاعتراض صيغة أقوى عند الفيلسوف البريطاني ديريك بارفيت، ومن الإنصاف أن نواجهها[3].

يتخيّل بارفيت آلة تمسح جسدك ودماغك خلية خلية وتتلفهما، ثم ترسل المعلومات إلى كوكب آخر، فيُبنى هناك جسد مطابق له ذكرياتك وطباعك كلها. فهل هذا أنت؟

وجوابه أن الهوية الشخصية ليست شيئاً فوق «الاتصال النفسي»: الذكريات والطباع والاهتمامات. فإن وُجد هذا الاتصال فقد وُجد كل ما يهم. ثم يرتّب على ذلك أن من تغيّر كثيراً بمرور السنين قد يستحق عقوبة أقل على ما فعله قديماً.

وننظر في هذا من ثلاث جهات.

الأولى: معيار بارفيت نفسه يشهد للبعث. إذا كانت الهوية هي اتصال الذاكرة والطبع، فهذا عين ما يخبر القرآن بإعادته: «يوم يتذكر الإنسان ما سعى» (النازعات 35)، «علمت نفس ما أحضرت» (التكوير 14). المبعوث يذكر عمله، ويعرف نفسه، ويحمل كتابه. فمن قَبِل معيار أقوى الفلاسفة في هذا الباب لزمه أن المُعاد هو الأول.

الثانية: الآلة تصنع اثنين، والبعث يعيد واحداً. إشكال بارفيت الأكبر أن آلته قد تبني نسختين، فأيهما أنت؟ وهذا لا يرد على البعث؛ فالمعيد واحد، وكل نفس تُعاد مرة واحدة.

الثالثة: التغير محسوب عندنا قبل بارفيت. قوله إن من تغيّر يخفّ ما عليه قريب مما يقرره القرآن بلفظ آخر. من تغيّر حقاً فقد تاب، والتائب تُبدَّل سيئاته حسنات. ومن بقي على حاله لم يتغير، فلا عذر له. والفرق أن القرآن يحفظ حق المظلوم في الحالين، وبارفيت لا يذكره.

أين تُحفظ الذات؟ مثال السحابة

يُقال على سبيل المزاح: الإنسان ينقل بيانات هاتفه المحترق إلى هاتف جديد، فكيف يعجز بديع السماوات والأرض عن نقل الذات إلى جسد جديد؟ والمثال أدقّ مما يبدو، ونبني عليه.

من كانت بياناته محفوظة على السحابة، ثم تلف هاتفه، لم يخسر شيئاً. يشتري هاتفاً جديداً فتنزل عليه النسخة المحفوظة، فيصير من حيث المحتوى كأنه الأول. العتاد هلك، والمحتوى باقٍ في موضع آخر.

ولله المثل الأعلى. يمكن أن يكون لما يحمله الدماغ من معلومات وذكريات وأفعال حفظٌ خارج الدماغ. فإذا هلك الدماغ بقي المحفوظ، يُستعاد لأمرين: للتنزيل على جسد جديد، وهو البعث؛ وللمراجعة، وهي الحساب.

والقرآن يخبر بهذا الحفظ بلفظ يكاد يكون لفظ عصرنا: «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» (الجاثية 29). والمعنى عند المفسرين أن الحفظة مأمورون بكتابة الأعمال وإثباتها[4]. وهو حفظ مستمر لا يفوته شيء: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» (ق 18). «وكل شيء أحصيناه كتاباً» (النبأ 29). «علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى» (طه 52).

وفي المثال فائدة لأطروحة الكتاب نفسها. النسخة المحفوظة لا تعمل وهي محفوظة؛ لا تعدّ الوقت ولا تنتظر. والهاتف الجديد يبدأ من آخر لحظة حُفظت، اشتُري بعد يوم أو بعد

عشر سنين. وهذا معنى «لبثنا يوماً أو بعض يوم»: المدة مسجّلة في الخارج، غائبة عن المحتوى نفسه.

ولهذا المثال ثلاثة حدود نصرّح بها.

- هو تمثيل يقرّب الإمكان، وليس دعوى علمية. العلم لم يجد للدماغ سحابة. مصدر الخبر عندنا النص، ووظيفة المثال أن يرفع الاستبعاد.
- النسخة تنزل على جهازين، والإنسان لا يكون اثنين. وجوابنا أن المعيد واحد عادل لا يعيد إلا واحداً.
- تشبيه العقل بالبرنامج والدماغ بالعتاد موضع خلاف بين فلاسفة العقل. فلا نحمّل المثال أكثر مما يحتمل.

ما تضيفه الفيزياء، وما لا تضيفه

لا نطلب من الفيزياء أن تثبت البعث. نأخذ منها أمراً واحداً ثبت بالقياس: المدة بين حدثين تختلف باختلاف من يقيسها. فقولنا إن بين الموت والبعث قروناً عند الأحياء ولا شيء عند الميت لا يخالف ما نعرفه عن الزمن؛ يخالف فقط ما كنا نظنه قبل قرن.

ولا نزيد على ذلك. يُقال كثيراً إن ميكانيكا الكم تثبت بقاء المعلومات، أو أن الوعي يصنع الواقع، ويُبنى على ذلك كلام في الروح والبعث. ونحن نتركه؛ فالدماغ، في حدود ما نعلم، يعمل بفيزياء عادية، وليس في الفيزياء ما يسند هذه الدعاوى.

هذا عن الذي يُحاسَب. ويبقى السؤال الأصعب على القلب: هل الحساب نفسه عدل؟

هوامش الفصل الخامس عشر

1. John Locke, *An Essay Concerning Human Understanding*, II.27 (ط2، 1694)؛ David Hume, *A Treatise of Human Nature*, I.4.6 (1739).
2. هذه الصيغة متداولة على وسائل التواصل، ونقلناها بمعناها.
3. عرض دانيال كلاين رأي بارفيت وتجربته الفكرية في «كلما وجدتُ معنى الحياة يغيّرونه»، ترجمة شهرت العالم، آفاق، 2023، ص 148–151. وأصل الرأي في كتاب بارفيت «أسباب وأشخاص» (Reasons and Persons, 1984).
4. التفسير الميسر وتفسير ابن كثير، الجاثية 29. وتفسير الجلالين للآية نفسها.

الفصل السادس عشر

الاعتراضات والردود — أين العدل؟

«ولا يظلم ربك أحداً» (الكهف 49)

إذا كان الحساب واحداً والظروف مختلفة، فأين العدل؟

أجبنا في الفصل الخامس عشر عن سؤال الهوية. وبقي اعتراضان يدوران على العدل: أحدهما ينكره، والآخر يطلبه في التناسخ.

الاعتراض الثاني: أين العدل؟

أصله

هذا ما يسمّيه الفلاسفة «مسألة الشر» أو مسألة العدل الإلهي: كيف يجتمع إله عادل قادر مع عالم فيه ظلم وتفاوت؟ وقد وضع له الفيلسوف الألماني ليبنتز اسماً صار علماً عليه، «الثيوديسيا»، عنواناً لكتاب نشره سنة 1710[1]. وتكلم فيه المتكلمون المسلمون قبله بقرون، في مسألة القدر وأفعال العباد، بين من غلّب العدل ومن غلّب القدرة.

ما يقوله في صيغته الشعبية

يقول المعترض إن العدالة الإلهية غير موجودة. وخلاصة قوله خمس دعاوى:

1. المخلوق لم يختر مصيره بإرادة حرة، وقد سبق به قضاء الله وعلمه المطلق؛ فكيف يُحاسَب؟
2. الظروف غير متساوية. واحد عاش في يسر فتديّن وتخلّق. وآخر نشأ في بؤس أنساه دينه ودفعه إلى الجريمة ليعيش، وجزاؤه في الدين العذاب.
3. فالخالق يميل إلى طرف على حساب طرف.
4. ومن يحاسب الخالق نفسه؟
5. ولماذا خلقنا وهو يعلم أن فئة تتنعم وفئة تعاني؟ هل نحن لعبة؟

الجواب

الاعتراض يحاكم صورة عن الدين لا يقولها القرآن. يفترض أن الحساب يتجاهل الظروف. والقرآن ينص على عكسه: «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها». «فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه» (البقرة 173). واستثنى المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة (النساء 98-99). فالبائس يُقاس بوسعه هو، لا بوسع المترف.

واليسر امتحان أيضاً، وحسابه أثقل. «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» (الأنبياء 35). «ثم لتسألن يومئذ عن النعيم» (التكاثر 8). من أُعطي أكثر سُئل عن أكثر. فالتفاوت في الدنيا تفاوت في أوراق الامتحان، لا في النتيجة.

والظروف القاسية لا تمحو الاختيار. هذه شهادة رجل جرّب أقسى الظروف. يروي فيكتور فرانكل أن في معسكرات الاعتقال رجالاً كانوا يمرّون على رفاقهم يواسونهم ويعطونهم آخر كسرة خبز معهم. كانوا قلة، لكنهم يكفون دليلاً على أن كل شيء يمكن أن يُؤخذ من الإنسان إلا واحداً سمّاه «آخر شيء من الحريات الإنسانية»: أن يختار موقفه مما هو فيه[2]. فالبؤس يضيّق الاختيار ولا يلغيه. وما ضاق منه محسوب لصاحبه عند من يعلمه.

والقاضي يعلم كل شيء، وهذا ضمان العدل لا نقيضه. قضاء البشر يظلم لأنه يجهل النشأة والدافع والضغط. والحساب الذي يصفه القرآن يزن بمثقال الذرة (الزلزلة 7–8): «ولا يظلم ربك أحداً» (الكهف 49).

والإجبار منفي بنص القرآن. وهنا قياس واضح: من أُكره على كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لا يُؤاخَذ (النحل 106). فإذا كان القرآن يرفع المؤاخذة عن المكرَه من البشر، فالقول بأن الله يُكره على المعصية ثم يعاقب عليها يناقض القرآن نفسه. «وما ربك بظلام للعبيد» (فصلت 46). وكل إنسان يجد من نفسه أنه يختار، والمعترض حين يلوم ويحتج يتصرف على أن الفاعلين مسؤولون. فمن ينفي الاختيار عليه الدليل.

والعلم ليس إجباراً. مرّ في الفصل الثالث أن علم الله إحاطة بما يختاره العبد حين يختاره، لا تنبؤ يقيّد الفعل. ومن يرى فعلاً لا يُكره فاعله عليه.

وشكوى الظلم نفسها دليل على البعث. المعترض يغضب لأن المظلوم لم يُنصف. ولو لم يكن حساب لكان ظلمه نهائياً بلا تعويض. فالتفاوت الذي يحتج به هو ما يجعل اليوم الآخر ضرورة للعدل. وتفصيله في الفصل الثالث.

وسؤال «هل نحن لعبة؟» أجاب عنه القرآن بلفظه. «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون» (المؤمنون 115). وهي الآية التي تأتي بعد آيات اللبث مباشرة. «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين» (الأنبياء 16).

أما «من يحاسبه؟» فالمحاسبة تكون لمن يجوز عليه الجهل أو الهوى أو الحاجة. والميل إلى طرف يحتاج مصلحة عند ذلك الطرف، ولا مصلحة للغني عن خلقه.

الاعتراض الثالث: التناسخ حلاً لمسألة العدل

أصله

التناسخ عقيدة أصيلة في أديان الهند: الهندوسية والجاينية والبوذية، وتقوم على أن عمل الإنسان يحدد مولده التالي في سلسلة من الحيوات. وقال به من اليونان فيثاغورس وأفلاطون، وقال به في تاريخ الإسلام غلاة من الفرق، وردّه عامة المسلمين. وهو اليوم

أوسع انتشاراً مما يُظن: في استطلاع شمل خمسة وثلاثين بلداً سنة 2025، كان الوسيط أن ثلث البالغين يؤمنون به[3].

ما يقوله في صيغته الشعبية

يقترح بعضهم أن الروح الواحدة تنتقل في أجساد مختلفة، فيختبر الله الشخص نفسه في أزمان وأماكن وظروف عدة، وبذلك يكتمل العدل. ويُقال إن بعض الفرق الإسلامية تتبنى ذلك.

الجواب

القرآن يغلق باب الرجوع صريحاً. «حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» (المؤمنون 99–100). «لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى» (الدخان 56). «ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين» (غافر 11). الموتة بعد هذه الحياة واحدة، وطلب الرجوع مرفوض.

والتناسخ يوقع صاحبه في الاعتراض الأول. من يُمتحن في حياة لا يذكر شيئاً من حيواته السابقة ليس «الشخص نفسه» بأي معنى تقوم به المسؤولية. فإن كان السؤال «من الذي يُحاسَب؟» قائماً مع ذاكرة موصولة، فهو مع التناسخ أشد.

والعدل لا يحتاج تسوية الظروف، بل حساباً بقدر الظرف. وهذا ما مرّ في جواب الاعتراض الثاني. فالمشكلة التي جاء التناسخ ليحلها محلولة بغيره.

وهو يؤخر المشكلة ولا يحلها. تفاوت الحياة الأولى يبقى بلا تفسير. فإن فُسّر بحياة قبلها تسلسل الأمر بلا نهاية.

والأموات لا يرجعون إلى الدنيا بنص القرآن. «ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون» (يس 31).

والعلم لا يسنده. أشهر ما يُحتج به حالات أطفال يقولون إنهم يذكرون حياة سابقة، جمعها الطبيب إيان ستيفنسون، وسمّاها هو نفسه «موحية» لا مثبتة. وأكثرها من مجتمعات تؤمن بالتناسخ، ووُثّق كثير منها بعد أن التقت الأسرتان. و«ذكريات الحيوات السابقة» تحت التنويم تبيّن أنها من صنع الإيحاء[4]. ولا نبني رفضنا على العلم، بل على القرآن.

وأطروحة الكتاب تغني عنه. الميت لا ينتظر، فلا حاجة إلى ما يملأ المدة. يُبعث الأولون والآخرون معاً، ويُحاسَب كلٌّ على حياته الواحدة بقدر ما أُعطي فيها.

أما نسبته إلى فرق إسلامية، فالقول بالتناسخ منسوب تاريخياً إلى فرق من الغلاة، وعامة المسلمين سنةً وشيعةً على رفضه[5].

ما يبقى في مرتبة الإيمان

في هذه الأجوبة ثلاثة مواضع لا يحسمها برهان، ونضعها في مرتبة الإيمان.

1. **هل المُعاد عين الأول؟** مسألة يتنازع فيها الفلاسفة إلى اليوم. جوابنا مبني على علم الله وقدرته وعدله، لا على تجربة.
2. **كيف يجتمع القدر والاختيار على التمام؟** مسألة قديمة اختلف فيها المتكلمون. نقول ما نفاه القرآن، وهو الإجبار والظلم، ولا نزعم أننا أحطنا بالكيفية.
3. **لماذا وُزّعت الأقدار هكذا بالذات؟** لا نعلم. ونعلم أن الحكم على كل إنسان عند من يعلم ظرفه كله.

ولا نبني الإيمان على ما لم يكتشفه العلم بعد. وصحيح أن عدم توصل العلم إلى شيء لا ينفي وجوده؛ فالعلم إلى اليوم لا يعرف كيف ينشأ الوعي من الدماغ ولا كيف بدأت الحياة. لكن سكوت العلم لا يثبت البعث كما لا ينفيه. إثباته عندنا من النص، ومن برهان العدل.

هوامش الفصل السادس عشر

1. G. W. Leibniz, *Essais de Théodicée* (1710).

2. فيكتور فرانكل، «الإنسان يبحث عن المعنى»، الترجمة العربية، ص 94–95.

3. Pew Research Center, «Beliefs about the afterlife», 6 مايو 2025.

4. Ian Stevenson, *Twenty Cases Suggestive of Reincarnation* (1966)؛ ونقدها في: Paul Edwards, *Reincarnation*: *A Critical Examination* (1996).

5. يُنظر في ذلك كتب الفِرَق، ومنها «الملل والنحل» للشهرستاني.

الفصل السابع عشر

أسئلة يسألها القارئ

«ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان» (الحشر 10)

ما الذي يسأله من فقد عزيزاً؟

أسئلة من القلب

الاعتراضات التي مرّت في الفصلين السابقين جاءت ممن يخالف الفكرة. وهذه أسئلة من نوع آخر، يسألها من يوافقها، أو من فقد أباً أو أماً أو ولداً، ويريد أن يعرف: ماذا يعني هذا لي ولمن أحب؟

إذا كان الميت لا يجد شيئاً، فهل ينفعه دعائي وصدقتي؟

نعم، وبلا تردد. والكتاب لم يقل إن الميت انقطع عن الخير، بل قال إنه لا يجد طول المدة.

سأل رجل النبي ﷺ: إن أمي ماتت فجأة، وأظنها لو تكلمت تصدّقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: نعم[1]. وعدّ في الحديث المشهور مما يجري على الإنسان بعد موته: «ولد صالح يدعو له»[2]. وعلّمنا القرآن أن ندعو لمن سبقنا: «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان» (الحشر 10).

وعلى أطروحة الكتاب يصير هذا أقرب إلى القلب. فكل دعوة تدعوها لأبيك تُكتب في كتابه، والكتاب لم يُغلق: «ونكتب ما قدّموا وآثارهم» (يس 12). وحين يقوم من رقدته، ويُعطى كتابه، يجد فيه دعاءك كله، ما دعوته في يوم موته وما دعوته بعد ثلاثين سنة، كأنه وصل إليه في لحظة واحدة.

هل يعرف الميت أني أزوره؟ وهل أسلّم عليه؟

زيارة القبور سنة. قال النبي ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»، وجاء في رواية تعليل ذلك بأنها تذكّر الآخرة[3]. وعلّم أصحابه أن يقولوا إذا زاروها: «السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»[4].

أما هل يسمع الميت سلامك، ففيها خلاف قديم بين العلماء. منهم من قال يسمع، واحتج بأحاديث في الباب. وكانت عائشة تحتج بقوله تعالى «وما أنت بمسمع من في القبور»، كما مرّ في الفصل الثاني عشر. ونحن نميل إلى قولها فيما بعد الدفن، ولا نخطّئ من خالفه. أما الحديث الصحيح في أن الميت يسمع قرع نعال مشيّعيه إذا انصرفوا، فهو

عندنا من شأن لحظة الدفن والسؤال التي نقرّ بها، لا من شأن ما بعدها؛ فلا تعارض بين قبوله والميل إلى قول عائشة.

لكن الجواب العملي لا يتغير على القولين. فالسلام سنة، والدعاء ينفع، والزيارة تذكّرك أنت. فزُر، وسلّم، وادعُ. فإن كان يسمع فقد بلغه سلامك، وإن كان راقداً فقد كُتب له دعاؤك، وبقيت لك العبرة في الحالين.

رأيت أبي في المنام بعد موته؛ فهل كان هو؟

هذا من أكثر ما يسأل عنه الناس، ومن أرقّه.

في الحديث أن «الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان»، وأن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة[5]. ونقل القرطبي عند قوله تعالى «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها» عن ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما من المفسرين أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتتعارف ما شاء الله منها[6]. وهي أقوال في تفسير الآية، لا أحاديث مرفوعة، ومن أخذ بها فله سلف.

والذي نقوله: الرؤيا الطيبة نعمة من الله على الرائي، يطمئن بها قلبه، ويُذكّر بها بمن فقد، وقد يريه الله فيها ما يسرّه. ولا نبني عليها عقيدة، ولا ننكر ما يجده الناس فيها من عزاء. فإن رأيت أباك في منامك مطمئناً، فاحمد الله، وادعُ له، وصِل من كان يحب.

وماذا عن الطفل الذي مات صغيراً؟

هذا أشد ما يُسأل عنه، والجواب فيه من أرحم ما في الدين.

الطفل لم يُكلَّف، فلا حساب عليه. وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ رأى في رؤياه إبراهيم عليه السلام في روضة، وحوله أولاد الناس الذين ماتوا صغاراً[7]. وفيه أيضاً أن من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِلْم أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم[8].

وعلى أطروحة الكتاب يزداد المعنى رحمة. فالطفل لم ينتظر أمه ولا أباه في الظلام. لا يجد بين موته ولقاء والديه شيئاً. الوالدان هما اللذان يعدّان السنين، أما هو فلا.

وحديث «الأنبياء أحياء في قبورهم»؟

جاء في الحديث: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون»، رواه أبو يعلى والبيهقي، وصححه البيهقي والألباني[9]. وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ مرّ ليلة أُسري به على موسى وهو قائم يصلي في قبره[10].

ونحن نأخذ هذا كما جاء، ونجعله مع الشهداء في الاستثناء الذي قلنا به من أول الكتاب. فإذا كان الشهداء أحياء عند ربهم بنص القرآن، فالأنبياء أولى بذلك منهم. وهي حياة خاصة يكرمهم الله بها، لا تجري عليها سنن حياتنا، ولا تنقض الأصل الذي قام عليه الكتاب في سائر الناس.

هل سألتقي بمن فقدت؟

وعد الله المؤمنين أن يجمعهم بأهلهم الصالحين: «جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم» (الرعد 23). «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم» (الطور 21).

وهنا تبلغ فكرة هذا الكتاب أرقّ معانيها. أنت تعدّ الأيام منذ فقدت أمك، وتشعر أن الفراق طال. أما هي، فلم تجد شيئاً من هذا الفراق. حين تلقاها، إن شاء الله، لن تقول لك: طال غيابك. ستكون عندها كأنك لحقت بها بعد لحظة. الشوق كله في جهتك، والانتظار كله عندك، أما هي فقد وصلت إلى اللقاء في طرفة عين.

هوامش الفصل السابع عشر

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز (1388)؛ وصحيح مسلم، كتاب الزكاة (1004)، من حديث عائشة.
2. صحيح مسلم (1631)، من حديث أبي هريرة.
3. صحيح مسلم، كتاب الجنائز (977)، من حديث بريدة؛ وفي رواية الترمذي (1054): «فإنها تذكّر الآخرة».
4. صحيح مسلم، كتاب الجنائز (974)، من حديث عائشة.
5. صحيح البخاري، كتاب التعبير (6984 و6989).
6. القرطبي، «الجامع لأحكام القرآن»، الزمر 42؛ وذكر البغوي المعنى نفسه في «معالم التنزيل»، وابن كثير عن بعض السلف، في الموضع نفسه.

7. صحيح البخاري، كتاب الجنائز (1386)، من حديث سمرة بن جندب.
8. صحيح البخاري، كتاب الجنائز (1248)، من حديث أنس.
9. أبو يعلى، «المسند» (3425)؛ والبيهقي، «حياة الأنبياء في قبورهم»؛ وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (621).
10. صحيح مسلم، كتاب الفضائل (2375)، من حديث أنس.

الباب السادس

الأثر — كيف نعيش بهذه الفكرة

إن صحّ ما مضى، فماذا يتغير في خوفنا من الموت، وفي ما نصنعه بأعمارنا؟

قد يبدو للقارئ أننا نترك هنا موضوع الكتاب إلى غيره. والحق أننا نصل إلى ثمرته. فكل ما مضى كان سؤالاً عن الزمن بعد الموت، وجوابه أن لا زمن هناك يجده الميت. وهذا الجواب يردّنا بالضرورة إلى الزمن الوحيد الذي نجده: ما بين أيدينا الآن. ولذلك يتغير صوت الكتاب في هذا الباب، من الاستدلال إلى الحديث مع القارئ عن نفسه.

الفصل الثامن عشر

الخوف من الموت

«كل نفس ذائقة الموت» (آل عمران 185)

ممَّ نخاف حين نخاف الموت؟

كل الناس يموتون، إلا أنا

كتب تولستوي سنة 1886 قصة قاضٍ اسمه إيفان إيليتش، عاش حياة ناجحة لائقة، ثم أصابه مرض أخذ يقتله ببطء. وفي القصة مشهد يعرفه كل من قرأها. تذكّر الرجل قياساً تعلّمه في درس المنطق: كايوس إنسان، والبشر فانون، إذن كايوس فانٍ. وكان يراه صحيحاً تماماً في حق كايوس. أما هو فليس كايوس؛ هو إيفان الذي كان له أب وأم ولُعب وطفولة. فكيف يموت هو؟[1].

هذا حال أكثرنا. نعلم أن الموت حق، ونقولها في كل عزاء، ثم نعيش كأن القاعدة لها استثناء واحد. ومصطفى محمود يصف جنازة فيقول ما معناه: المشيّعون يفكرون في المشوار، والورثة في الميراث، وكل واحد قلق على وقته أو صحته أو ماله؛ ولا أحد يبدو

عليه أنه يصدّق الموت، حتى الذي يحمل النعش على كتفه[2]. والقرآن يسدّ هذا الباب بلفظ لا يترك أحداً خارجه: «كل نفس ذائقة الموت» (آل عمران 185). لم يقل: الناس يموتون. قال: كل نفس، واحدةً واحدة. ثم خاطب أكرم الخلق بالمفرد: «إنك ميّت وإنهم ميّتون» (الزمر 30).

الكذبة حول سرير المحتضر

أشدّ ما عذّب إيفان إيليتش لم يكن الألم. كان الكذب. أهله وأطباؤه يعرفون أنه يموت، وهو يعرف، وكلهم يمثّلون أنه مريض سيُشفى إن التزم الدواء. ولم يصدقه إلا خادم شاب بسيط، كان يسند رجليه بالساعات ولا يتظاهر بشيء، ويقول له ما معناه: كلنا سنموت، فلمَ لا أتعب لأجلك؟

وفي هذا درس لكل من يجلس عند سرير محتضر. من حق من يموت أن يُعامَل بصدق ورحمة معاً. والصدق لا يعني القسوة؛ يعني ألا نتركه وحيداً خلف تمثيلية يعرف أنها تمثيلية. ومن الرحمة به أن نعينه على ما بقي له: وصية يكتبها، وحق يردّه، وكلمة يقولها.

ممَّ نخاف بالضبط؟

الخوف من الموت أربعة مخاوف مختلطة، وفصلُ بعضها عن بعض نصف العلاج.

ألم النزع. حق، وله سكرات؛ وهو من الدنيا لا مما بعدها.

وحشة القبر وطول المكث فيه. لا يجدها الميت، لا يجد المدة أصلاً (الفصول من الخامس إلى الثاني عشر). وهذا خوف عرفته كل الأمم. كتب أحد دعاة التناسخ في الغرب سنة 1930 أن الناس، مهما أنشدوا في كنائسهم، يرتعدون في سرّهم من مدة لا آخر لها يقضونها بلا وعي في انتظار يوم الحساب، وجعل ذلك حجة لمذهبه[3]. وفاته أن المدة التي لا تُوعى لا تطول على صاحبها.

الفناء. ليس الموت فناء، هو رقدة بعدها قيام (الفصل الثامن).

الحساب. هذا هو الخوف الصحيح، وهو الذي ينفع صاحبه.

فأطروحة الكتاب تُسقط خوفاً واحداً من الأربعة، وهو أكثرها إيلاماً للأحياء: أن أحبابنا ينتظرون وحدهم في الظلام. لا ينتظرون. وتُبقي الخوف الذي أراده القرآن: «واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله» (البقرة 281).

وقد سبق أبيقور، الفيلسوف اليوناني، إلى نصف هذا المعنى. قال إن الموت لا يعنينا: فحين نكون لا يكون الموت، وحين يكون الموت لا نكون؛ فلا معنى للخوف مما لن نجده[4]. وكان أبيقور ينكر البعث، فرأى الموت نهاية. ونحن نوافقه على أن الميت لا يجد موته، ونخالفه في أنه نهاية. الذي لا يجده الميت عندنا هو الانتظار، لا اللقاء.

لماذا لا ينتظر الميت؟ درس من معسكر الاعتقال

فيكتور فرانكل طبيب نفسي قضى سنوات في معسكرات الاعتقال النازية، وخرج منها بكتاب في معنى الحياة. وفيه ملاحظة عن الزمن لم تكن في حسابنا. يقول إن اليوم الواحد في المعسكر، بما فيه من رعب وتعب، كان يبدو بلا نهاية، وإن الأسبوع كان يمرّ سريعاً، حتى كان السجناء يقولون إن اليوم أطول من الأسبوع. ويعلّل ذلك بأن السجين لا يعرف متى ينتهي سجنه، فلا يستطيع أن يعيش لأجل مستقبل، فيختلّ إحساسه بالزمن من داخله[5].

والذي نأخذه من هذا: الإحساس بطول المدة يصنعه وعيٌ يترقب نهاية. الانتظار فعل: أن تعي الحاضر، وتتطلع إلى آتٍ، وتعدّ ما بينهما. والميت قد قُبضت نفسه؛ فلا حاضر يعيه ولا آتٍ يتطلع إليه. فلا معنى لأن يُقال إنه انتظر ألف سنة.

وهذا تقريب من حال الأحياء، لا دليل على حال الأموات. الدليل ما مرّ من القرآن.

لحظة عنده، وساعتان عند من حوله

في الصفحة الأخيرة من قصة تولستوي جملة تستحق أن يقف عندها من يقرأ هذا الكتاب. بعد ثلاثة أيام من الصراخ، هدأ الرجل، ورأى مكان الظلمة نوراً، وبحث عن خوفه القديم من الموت فلم يجده. ثم يقول الكاتب إن ذلك كله جرى عنده في لحظة

واحدة لم يتبدل معناها، وكان الحاضرون يرون احتضاراً يطول. وآخر ما قاله في نفسه: «انتهى الموت، لم يعد موجوداً».

تولستوي روائي لا مفسّر، لكنه لمس بحدس الفنان ما يقوم عليه هذا الكتاب: للحدث الواحد زمنان، زمن يعدّه الواقفون حول السرير، وزمن يجده صاحبه.

«ما مضى لم يكن الصواب»

قبل موته بساعتين أدرك إيفان إيليتش أن حياته كلها، اللائقة الناجحة، لم تكن كما ينبغي. وهذا السؤال في القرآن بلسان أصحابه: «يقول يا ليتني قدّمت لحياتي» (الفجر 24). والفرق أن تولستوي أعطى صاحبه فرصة في الساعة الأخيرة، والقرآن يحذّر من التعويل عليها: «وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن» (النساء 18). فالعاقل يسأل سؤال إيفان إيليتش وهو صحيح معافى.

الموت يعطي الحياة قيمتها

لو كنا لا نموت لأجّلنا كل شيء إلى غد لا ينتهي؛ فالأجل هو الذي يجعل لليوم ثمناً. ويشبّه فرانكل المتشائم بمن ينظر إلى تقويم الحائط حزيناً وأوراقه تنقص، والعامل بمن ينزع كل ورقة فيكتب على ظهرها ما صنع ثم يحفظها؛ فما يفعله الإنسان ينتقل إلى الماضي فيُحفظ فيه.

وهذا في القرآن أصل: «ونكتب ما قدّموا وآثارهم» (يس 12). فالماضي عند المؤمن ليس ما ضاع، بل ما ادُّخر.

وإذا كان الأجل هو الذي يعطي اليوم ثمنه، فكيف ننفق هذا اليوم؟

هوامش الفصل الثامن عشر

1. ليف تولستوي، «موت إيفان إيليتش»، ترجمة وتقديم مها جمال، سلسلة آفاق عالمية (المئة كتاب). القياس في الصفحة 75، والكذب والخادم في ص 84–85، وإدراكه الأخير في ص 113، والخاتمة في ص 115.
2. مصطفى محمود، «لغز الموت»، دار المعارف، فصل «اللغز»، ص 2.
3. H. Spencer Lewis, *Mansions of the Soul*: *The Cosmic Conception* (San Jose: Rosicrucian Press, 1930).
4. أبيقور، «رسالة إلى مينيكيوس»، 124–125، في: ديوجين اللائرتي، «حياة الفلاسفة»، الكتاب العاشر.
5. فيكتور فرانكل، «الإنسان يبحث عن المعنى»، الترجمة العربية. خبرة الزمن في المعسكر في ص 99–101، وزوال الحياة وحفظ الماضي في ص 159–160.

الفصل التاسع عشر

فرصة واحدة

«وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا» (القصص 77)

إذا كانت الحياة فرصة واحدة، فكيف نعيشها؟

كل شيء مؤقت

الموت قهر البشر جميعاً، ولم يجد له أحد حلاً. لكن من تأمّله وجده أنفع ما يذكّر بالحياة. وهذا ما انتهيت إليه بعد سنين:

- الموت مدعاة لأن تستغل حياتك وتستمتع بها، لأنها لا تتكرر.
- ومدعاة لأن تغتنم وقتك، لأنه محدود.
- ومدعاة للصبر، لأن كل معاناة منتهية.
- ومدعاة للقناعة، لأن كل مكسب منتهٍ.
- ومدعاة لألا تبالغ في الفرح ولا في الحزن، لأن كل شيء إلى زوال.

كل ما في حياتك مؤقت. هذا واقع لا علاج له، فتأقلم معه. «كل من عليها فان» (الرحمن 26). «ما عندكم ينفد وما عند الله باق» (النحل 96).

العمر ليس قصيراً، نحن نضيّعه

قبل ألفي سنة كتب الفيلسوف الروماني سينيكا رسالة قصيرة في قِصر الحياة، وفتحها بما يخالف شكوى الناس جميعاً. قال: «ليس العمر قصيراً، لكننا نضيّع كثيراً منه»[1]. وما أُعطينا يكفي لأعظم الأعمال لو أحسنّا إنفاقه.

وله في الرسالة ملاحظات كأنها كُتبت اليوم. نبخل بالمال ونسخو بالعمر: نتقاتل على شبر من الأرض، ثم نوزّع أعمارنا على كل من طلب. ونخاف كالفانين ونطمع كالخالدين: نقول إذا بلغت الخمسين استرحت، ومن ضمن لنا الخمسين؟ وأكبر مضيّع للعمر التأجيل؛ يأخذ منا اليوم ويعدنا بغدٍ ليس في أيدينا. والرجل الذي ابيضّ شعره ربما لم يعش طويلاً، بل بقي طويلاً فحسب، كسفينة دارت بها العاصفة في الميناء: لم تسافر، بل تقاذفتها الأمواج.

وسبقه علماؤنا إلى هذا المعنى، وزادوا عليه ما لا يعرفه رواقيّ. كان الحسن البصري يقول: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك[2]. فالعمر عنده ليس شيئاً تملكه، بل هو أنت. وكتب ابن الجوزي في «صيد الخاطر» أن على الإنسان أن يعرف شرف زمانه وقدر وقته، فلا يضيّع منه لحظة في غير قربة[3]. وقال ابن القيم في «الفوائد»

كلمة تصلح عنواناً لهذا الباب: إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها[4].

وكلمة ابن القيم تلتقي بما انتهى إليه هذا الكتاب التقاءً عجيباً. فإذا كان الموت لا مدة بعده يجدها الميت، فليس فيه خسارة للوقت أصلاً؛ الخسارة كلها في الوقت الذي يضيع قبله.

والقرآن أوجز هذا كله في سورة من ثلاث آيات: «والعصر * إن الإنسان لفي خُسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر». أقسم بالزمن، ثم جعل الخسارة هي الأصل، والنجاة استثناء لمن ملأ زمنه.

لو عرفتَ كم بقي

بول كالانيثي جرّاح أعصاب أمريكي عرف في السادسة والثلاثين أن في رئته سرطاناً لا يُرجى شفاؤه، فكتب في ما بقي له كتاباً لم يُتمّه[5]. سأل طبيبته: كم بقي لي؟ فرفضت أن تعطيه رقماً. وكان يقول في نفسه: لو قيل ثلاثة أشهر لقضيتها مع أهلي، ولو قيل سنة لكتبت كتاباً، ولو قيل عشر سنين لعدت إلى المرضى. فالذي يحدد ما نفعله بأيامنا هو ما نظنه باقياً منها.

ولما علم بقرب أجله انبسط المستقبل عنده حاضراً ممتداً، وفقد المال والمنصب بريقهما، وبقي شيء واحد له مستقبل: ابنته التي وُلدت في مرضه.

وكالانيثي لم يكن يعلم عن أجله أكثر مما نعلم عن آجالنا. الفرق أنه صدّق.

حساب المحدود واللانهائي

تعلّمنا في الرياضيات أن أي مقدار محدود إذا قُسم على اللانهاية كان الناتج صفراً، كبر المقدار أو صغر. وعمر الإنسان مقدار محدود، ينتهي بالموت. والآخرة عندنا دائمة لا موت فيها. فالعمر كله، طال أو قصر، سعيداً كان أو شقياً، لا يكاد يكون شيئاً إذا قيس بها.

فالأولى بالعاقل أن يهتم بالباقي. لكن هذا المقدار الضئيل هو كل ما نملك لنصنع به الباقي؛ فهو أثمن ما في أيدينا لا أهونه.

وليس سهلاً أن يكون المرء ممن يؤمنون بالغيب حقاً، ولو عدّ نفسه منهم. الإيمان بالغيب أن تُجري هذا الحساب في قراراتك، لا على لسانك.

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً

ومن أجمل ما قيل في هذا الميزان كلمة سارت على ألسنة الناس: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»[6].

ونحن في العادة نعكسها: نعمل لدنيانا كأننا نموت غداً، فنلهث ونستعجل، ونعمل لآخرتنا كأننا نعيش أبداً، فنؤجّل التوبة وردّ الحقوق.

«**كأنك تعيش أبداً**». لها وجهان، وكلاهما حسن.

الأول: أتقن عملك إتقان من سيبقى ليرى ثمرته. ازرع الشجرة ولو لم تأكل منها. والثاني: لا تحترق على الدنيا، خذها بهدوء من له متسع، ولا تبع لأجلها ما لا يُعوَّض.

«كأنك تموت غداً». وهذه لا تحتمل إلا وجهاً واحداً: لا تؤجّل. الحق الذي عليك ردّه اليوم، والكلمة التي تريد أن تقولها لأمك قلها اليوم، والتوبة اليوم.

وعلى أطروحة هذا الكتاب تزداد العبارة دقة. من مات غداً فقد بلغ آخرته غداً، ليس بينهما مدة يجدها. فمعناها: كأنك تقف للحساب غداً، وهو معنى الآية: «ولتنظر نفس ما قدّمت لغد». للدنيا الإتقان والهدوء، وللآخرة المبادرة.

ميزان في آية واحدة

وهذا الميزان كله في آية واحدة، هي عندي من أجمل ما قيل في فلسفة الحياة: «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين» (القصص 77).

قيلت لقارون، أغنى أهل زمانه. فهي خطاب لمن في يده الدنيا، لا لمن حُرمها. وفيها أربع وصايا ترسم ميزاناً دقيقاً بين عالمين.

«وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة». لا تجعل الدنيا غايتك الأخيرة، اجعل عملك ومالك وعلمك ووقتك جسراً إلى ما هو أبقى.

«ولا تنسَ نصيبك من الدنيا». لا تحرم نفسك جمال الحياة؛ لا تهمل الحب والفرح والسفر والعلم والنجاح والراحة.

«وأحسن كما أحسن الله إليك». اجعل ما تملكه سبباً للإحسان إلى غيرك.

«ولا تبغِ الفساد في الأرض». لا تجعل سعادتك على حساب الآخرين.

وترتيبها مقصود: الوجهة، ثم حق النفس، ثم حق الناس، ثم الحدّ الذي لا يُتجاوز. فمن عرف وجهته لم تضرّه المتعة، ومن أحسن لم يحتج أن يفسد.

وللمفسرين في «نصيبك من الدنيا» قولان: أنه ما أحلّ الله لك من متاعها، وأنه عملك فيها لآخرتك[7]. والقولان يلتقيان عند ما نريد: الدنيا ليست عدواً يُهجر، ولا غاية يُوقف عندها.

فرصة واحدة

اجتمع ما سبق في فكرة واحدة أضعها بين يدي القارئ كما أراها: الحياة قصيرة، وهي فرصة واحدة لا تتكرر. فاغتنمها، واستمتع بها، واترك فيها أثراً، واستعدّ لما بعدها؛ فما بعدها رحلة لا تنتهي، يتفاوت الناس فيها تفاوتاً عظيماً بحسب ما قدّموا وما حملوا في قلوبهم.

في هذه الجملة خمس كلمات، ولكل كلمة شاهدها.

فرصة واحدة. لو كانت الحياة تُعاد لهان التفريط فيها. لكن القرآن يحكي طلب الإعادة وجوابه: «رب ارجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا» (المؤمنون 99-100). ومن علم أنها واحدة عرف قيمة كل يوم فيها؛ فالامتحان الذي لا يُعاد هو الذي يُستعدّ له.

اغتنمها. الاغتنام غير الاستعجال: المغتنم يعرف ما يريد فلا يضيّع يومه فيما لا يريده. والحياة قصيرة إذا قيست بما بعدها، وكافية إذا قيست بما خُلقت له.

استمتع بها. الذي خلق الدنيا جميلة لم يخلقها نخاً: «قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق» (الأعراف 32). وشكر النعمة أن تفرح بها من غير أن تظلم أحداً.

اترك أثراً. المتعة تنتهي بانتهاء صاحبها، والأثر يبقى بعده. ولد أحسنتَ تربيته، وعلم نفعتَ به، ومعروف صنعته، وكلمة طيبة قلتها لمن احتاج إليها. فالعمر القصير يطول بأثره.

واستعدّ. إذا كان الميت لا يجد المدة بين موته وبعثه، فالرحلة الأبدية تبدأ عند صاحبها ساعة يغمض عينه. فالاستعداد ليس لشيء بعيد.

رحلة لا تنتهي، ودرجات لا تتساوى

نحن نعرف التفاوت في الدنيا: غني وفقير، وصحيح ومريض، ومشهور ومغمور. والقرآن يلفت النظر إلى هذا التفاوت ثم يقول إن الذي بعده أكبر: «انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً» (الإسراء 21).

وبين التفاوتين ثلاثة فروق.

تفاوت الدنيا كثير منه لا يد لصاحبه فيه: أين وُلد، وماذا ورث، وتفاوت الآخرة كله من كسبه: «ولكلٍّ درجات مما عملوا» (الأنعام 132). وتفاوت الدنيا سنوات ثم يستوي الجميع في القبور، وتفاوت الآخرة لا ينتهي. وميزان الدنيا المال والجاه والقوة، وميزان الآخرة العمل وما في القلب.

والفرق الأول هو العدل: لا يُسأل أحد عما لم يُعطَ. والثاني يجعل الفارق الصغير في عمر قصير فارقاً دائماً في عمر لا ينتهي.

وأما الميزان ففيه كفّتان: ما قدّمه الإنسان، وما في قلبه.

ما قدّمه. العمل الظاهر الذي يراه الناس ويُكتب. والقرآن يسمّيه بهذا الاسم: «يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه» (النبأ 40).

وما في قلبه. الإيمان والنية، وهما ما يعطي العمل وزنه. عملان متشابهان في الصورة، أحدهما لوجه الله والآخر ليُقال، وبينهما في الميزان ما بين السماء والأرض: «يوم لا ينفع

مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم» (الشعراء 88-89). ويجمع القرآن الكفّتين في آية واحدة: «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» (النحل 97). والحياة الطيبة وعدٌ في الدنيا قبل الآخرة، فالمؤمن العامل لا يدفع دنياه ثمناً لآخرته، بل يربح الاثنتين.

فالحاصل: الدنيا قصيرة فلا تُضيَّع، وجميلة فلا تُهجَر، وواحدة فلا تُؤجَّل. والآخرة طويلة فلا تُنسى، ودرجاتها متباعدة فلا يُرضى فيها بالقليل.

هوامش الفصل التاسع عشر

1. سينيكا، «في قِصر الحياة»، عن الترجمة الإنجليزية لكوستا (سلسلة Penguin Great Ideas، 2005)، ص 8؛ وبقية المواضع في ص 11-12 و18 و20 و22. والعبارة المقتبسة بترجمتنا عن الإنجليزية.
2. يُروى عن الحسن البصري في «حلية الأولياء» لأبي نعيم، وفي «الزهد» لأحمد بنحوه.
3. ابن الجوزي، «صيد الخاطر»، فصل في معرفة شرف الزمان.
4. ابن القيم، «الفوائد»، فصل في إضاعة الوقت.
5. بول كالانيثي، «حين يصير النفَس هواء» (When Breath Becomes Air)، ص 93 و 111-113.
6. ليست حديثاً مرفوعاً، قال الألباني: «لا أصل له مرفوعاً» («السلسلة الضعيفة»، رقم 8). ورُويت موقوفة على عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ «احرث لدنياك»، أخرجها ابن قتيبة في «غريب الحديث»، وتُنسب أيضاً إلى علي بن أبي طالب. والوجه الثاني في معنى شطرها الأول ذكره ابن الأثير في «النهاية» (مادة: حرث).
7. الأول قول قتادة واستحسنه ابن العربي، والثاني قول ابن عباس والجمهور. يُنظر: تفسير القرطبي، القصص 77.

الفصل العشرون

العمل وما يبقى

«ولتنظر نفس ما قدّمت لغد» (الحشر 18)

إذا لم يكن بعد الموت مهلة، فماذا نصنع بما قبله؟

قبل أن تموت

عرفنا في الفصل السابق أن الحياة فرصة واحدة. ومن أعمق ما يتأمله الإنسان بعد ذلك أن الموت لا يأخذ الأجساد وحدها. قد يُدفن مع الجسد عالم كامل لم يرَ النور.

وفي هذا المعنى عبارة سارت بين الناس: أغنى مكان في العالم هو المقبرة؛ ففيها أفكار لم تُكتب، وكتب لم تُؤلَّف، وأحلام لم تتحقق. تُنسب العبارة إلى الواعظ مايلز مونرو[1]. ويرويها الكاتب الأمريكي تود هنري عن صديق سأل عن أغلى أرض في العالم، فذكروا مانهاتن وحقول النفط، فقال: إنها المقابر؛ أصحابها كانوا يؤجّلون إلى غد حتى «استنزفوا كل غدهم». فجعل هنري معنى ذلك عنوان كتابه: لا تمت وفي داخلك ما لم تُعطِه[2].

ونحن نسمّي هذا المعنى باسم أقرب إلى لساننا: قبل أن تموت. وليس المقصود أن تعمل حتى تنهار. المقصود ألا تحمل أفضل ما عندك إلى القبر: أن تُخرج في حياتك ما أُودع فيك من علم وموهبة وكلمة وصلح، فإذا جاء الأجل وجدك قد أعطيت.

لماذا يُدفن الناس ممتلئين؟

لا أحد يقرّر أن يدفن موهبته. يسمّي هنري ما يقع الرضا بالوسط: كمن توقف في منتصف الطريق إلى قمة جبل وبنى بيته هناك. وأبوابه أن تعيش بلا وجهة، وأن تأنس بالراحة، وأن يمنعك الكبر أو الخوف. وفي كل باب منها «غداً» صغيرة: غداً أكتب، غداً أصالح أخي. والناس على فراش الموت، كما يقول، لا يندمون على أنهم عملوا كثيراً، يندمون على أنهم آثروا السلامة على المحاولة.

والقرآن يسمّي ذلك اليوم باسم هذا الندم: «وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضي الأمر وهم في غفلة» (مريم 39). ويحكي لسان صاحبه: «أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله» (الزمر 56). التفريط هو الاسم القرآني لما يُدفن معنا.

الرجل الذي يتبعك يوماً كاملاً

يقترح هنري تمريناً: تخيّل أن أحداً سيتبعك غداً من يقظتك إلى نومك يدوّن كل ما تفعل، ثم يجعله السجل الوحيد لحياتك. كيف ستعيش ذلك اليوم؟ والمؤمن لا يحتاج أن يتخيّل: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» (ق 18). التمرين عندنا خبر.

ماذا تُخرج، وماذا تحمل؟

وهنا ما نزيده على ما قاله هنري. العطاء نصف المعنى. ونصفه الآخر ما تحمله معك.

ما تُخرجه من يدك قبل أن تموت هو علمك وموهبتك ومالك وكلمتك الطيبة واعتذارك وصلحك: «لينفق ذو سعة من سعته» (الطلاق 7). وما تحمله معك حين تموت هو كتابك: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يُرى» (النجم 39-40).

والاثنان شيء واحد من جهتين. كل ما أخرجته من يدك هنا دخل في كتابك هناك، وكل ما أمسكته مات معك. ولهذا عدّ الحديث ما يجري على الإنسان بعد موته ثلاثاً: صدقة جارية، وعلم يُنتفع به، وولد صالح يدعو له[3]. وكلها شيء أخرجه صاحبه من يده قبل أن يموت.

فالوصية عندنا تتمّ هكذا: قبل أن تموت، أعطِ كل ما أُعطيت، فما أعطيته هو الذي تحمله معك.

والإنسان في القرآن لم يُترك في الأرض ضيفاً ينتظر: «هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها» (هود 61). طُلب منه أن يعمرها. فما أُودع فيه من قدرة أمانة للعمارة، لا زينة تُدفن مع صاحبها.

الفسيلة

وأبلغ ما قيل في هذا الباب حديث من سطر واحد: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[4].

رجل في يده نخلة صغيرة، والقيامة تقوم. لن يأكل من تمرها أحد، ومع ذلك: اغرسها. فالعمل لا يُقاس بأن ترى ثمرته، بل بأنك لم تمت وهو في يدك. وإذا كان الميت لا يجد ما بين موته وبعثه، فكل واحد منا تقوم ساعته حين يموت، والفسيلة التي في يدك الآن هي التي يعنيها الحديث.

ثلاثة قيود حتى لا تُظلم الفكرة

الأول: العطاء ليس الإنهاك. من أحرق نفسه في العمل وأهمل أهله لم يُعطِ كل ما عنده؛ دفن معه أبوّته وصداقاته. «فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب» (الشرح 7-8).

الثاني: الصغير محسوب. أكثر ما يُدفن مع الناس أصغر من كتاب أو اختراع وأغلى: كلمة شكر لم تُقل، وزيارة أُجّلت، ودَين لم يُردّ. والله شكور يشكر العمل الصغير كما يشكر الكبير، كما يقول علي الفيفي[5]. وفي القرآن: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره» (الزلزلة 7).

الثالث: النية الصادقة لا تُدفن. من همّ بحسنة فحال دونها عذر كُتبت له حسنة كاملة[6]. الذي يُدفن هو ما قدرنا عليه وأجّلناه.

فلا يُسأل أحد عما لم يُعطَ، ولا عما مُنع منه، يُسأل عما كان في يده. فانظر ما في يدك اليوم: كتاب تريد أن تكتبه، أو أخ تصالحه، أو أمّ تجلس إليها. لا تحمله معك.

ما الذي يبقى؟

يبقى من الإنسان شيئان، كلٌّ في موضعه.

يبقى في الدنيا أثرك، ما قدّمته ليبقى بعدك من علم وولد وخير جارٍ: «ونكتب ما قدّموا وآثارهم» (يس 12). ويبقى في الآخرة عملك ونيتك: «والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً» (الكهف 46).

وقد التقى على هذا المعنى سينيكا وفرانكل: قال سينيكا إن الماضي وحده خرج من يد الحظ فلا يُنتزع، وقال فرانكل إن ما صنعناه محفوظ في الماضي لا يضيع. والقرآن يزيد: ليس محفوظاً فحسب، بل مكتوب لصاحبه ومردود إليه.

ولهذا جاء الأمر بلفظ عجيب: «ولتنظر نفس ما قدّمت لغد» (الحشر 18). سمّى الآخرة غداً. وعلى أطروحة هذا الكتاب هي غدٌ حقاً: ليس بين آخر يوم في الدنيا وأول يوم في الآخرة ليلٌ يجده النائم.

أسوأ ما يُحمل

من كل ما يحمله الإنسان معه، أسوؤه ظلم الناس. ذنب العبد في حق ربه بابه التوبة، والرب غفور. وأما حق الناس فلهم، ولا يسقط حتى يردّه أو يعفوا. «وقد خاب من حمل ظلماً» (طه 111).

يُروى أن أبا الدرداء كان له جمل، وكان يوصي من يستعيره ألا يحمّله فوق طاقته. فلما حضره الموت قال له: لا تخاصمني غداً عند ربي، فإني لم أكن أحمّلك إلا ما تطيق[7]. هذا رجل خاف أن يخاصمه جمل. فكيف بمن يخاصمه عامل أكل أجره، أو شريك خانه، أو ضعيف استطال عليه؟

فمن أراد أن يستعدّ فليبدأ من هنا: يصفّي حسابه مع كل من له عليه حق، وهو قادر على ذلك.

اصنع ذكريات

ووصيتي الأخيرة أبسط من كل ما سبق. اصنع ذكريات مع أولادك، ومع والديك، ومع من تحب.

المال يُقسم بعدك وينفد. والبيت يُباع. أما يوم خرجت فيه بأولادك، وجلسة أطلتها مع أمك، وكلمة قلتها لصاحبك في وقتها، فتبقى فيهم ما عاشوا، ويحكونها لمن بعدهم. هذا من الأثر الذي يُكتب.

وكالانيثي، الطبيب الذي مرّ ذكره، وهو يعدّ أيامه، لم يكتب لابنته نصائح. كتب لها أنها ملأت أيامه الأخيرة فرحاً. فإذا كان هذا أغلى ما وجده رجل يعلم أنه يموت، فهو أغلى ما نجده نحن الذين ننسى.

ومن برّ الوالدين بعد موتهما أن تصل من كانوا يحبون. أصدقاء أبيك هم ما بقي منه على الأرض.

لا مهلة بعد الموت

بهذا يعود الكتاب إلى أوله. قلنا إن الميت لا يجد ما بين موته وبعثه. وهذا الذي يطمئن القلب على من فقدنا، هو نفسه الذي يوقظه على ما بقي لنا. ليس بعد الموت وقت نراجع فيه، ولا مدة نستعدّ في أثنائها. «وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخّرتني إلى أجل قريب فأصّدّق وأكن من الصالحين * ولن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها» (المنافقون 10-11).

كل الزمن الذي نملكه هو ما قبل تلك اللحظة.

هوامش الفصل العشرين

1. نقلها عنه ويزدم سيتشالي في كتيّبه «عِش ممتلئاً ومُت فارغاً» (Wisdom Sichali, *Live Full Die Empty*)، ص 8؛ وفيه أن أعظم مأساة ليست الموت بل حياة بلا غاية.
2. تود هنري، «مُت فارغاً»، ترجمة عمر قايد، ص 9-11 من النسخة العربية. وبقية ما نُقل عنه هنا (الرضا بالوسط وأبوابه السبعة، وتمرين المراقب، والخطوة اليومية) من الكتاب نفسه، ومن

ملخّص براين جونسون له (Todd Henry, *Die Empty: Unleash Your Best Work Every Day*, Portfolio, 2013).

3. صحيح مسلم (1631)، من حديث أبي هريرة.
4. مسند أحمد (12981)، والبخاري في «الأدب المفرد» (479)، من حديث أنس بن مالك، وصحّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (9).
5. علي بن جابر الفيفي، «لأنك الله: رحلة إلى السماء السابعة»، فصل «الشكور».
6. صحيح البخاري (6491)، وصحيح مسلم (131)، من حديث ابن عباس.
7. أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (47/185) عن معاوية بن قرة.

كلمة أخيرة: إلى القارئ

«يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية» (الفجر 27-28)

إن كنت قرأت هذا الكتاب لأنك فقدت عزيزاً، فهذه الصفحة لك أولاً.

من فقدته لا ينتظرك في الظلام. لا يعدّ الليالي، ولا يستوحش، ولا يملّ. أغمض عينه على آخر ما رأى من الدنيا، وسيفتحها على أول ما يرى من الآخرة، وليس بينهما في شعوره إلا لمح البصر. الطول كله في جهتك أنت، والعدّ كله عندك. فإن طال عليك الفراق، فاعلم أنه لم يطل عليه. وكل دعوة تدعوها له تُكتب في كتابه، فيجدها كلها حين يقوم.

وإن كنت قرأته لأنك تخاف الموت، فاعلم أن ما تخافه من وحشة القبر وطول المكث لا يجده الميت. والذي يبقى من الخوف هو الخوف النافع: أن تقف بين يدي الله بما قدّمت. وهذا خوف يُعالَج بالعمل، لا بالقلق.

وإن كنت قرأته وأنت صحيح معافى، لم تفقد أحداً بعد، فهذه الصفحة لك أكثر من غيرك. أنت تملك الآن كل الزمن الذي ستملكه في حياتك كلها. ليس بعد الموت مهلة، ولا مدة تستدرك فيها. فاتصل بمن قطعت، وأعطِ ما في يدك، وقل الكلمة التي أجّلتها، واجلس مع أمك.

لقد بدأ هذا الكتاب بسؤال: أيّهما انتظر أطول، من مات قبل آلاف السنين أم من مات قبل الساعة بدقيقة؟ والجواب الذي حاولت أن أبيّنه أن أحداً منهما لم ينتظر. لكن بقي سؤال لا يجيب عنه كتاب، ولا يجيب عنه إلا القارئ نفسه: ماذا ستصنع بالوقت الذي بين يديك، قبل أن تغمض عينك؟

أسأل الله أن يرحم موتانا وموتى المسلمين، وأن يجمعنا بهم في دار لا فراق فيها، وأن يجعل ما بقي من أعمارنا خيراً مما مضى. والحمد لله رب العالمين.

خاتمة: خلاصة الكتاب

1. **السؤال.** من مات قبل آلاف السنين ومن يموت قبيل الساعة: أيهما انتظر أطول؟
2. **الجواب.** لا أحد منهما انتظر. الميت لا يجد المدة بين موته وبعثه؛ يغمض عينه هنا ويفتحها هناك.
3. **الدليل.** المبعوثون في القرآن يقدّرون ما لبثوا بيوم أو بعض يوم، في سبعة مواضع. ورجل مات مئة عام وفتية رقدوا ثلاثة قرون قالوا العبارة نفسها.
4. **الأساس.** الله لا يجري عليه زمننا، ولا تحكمه مقاييسنا. والحدث الواحد يُرى من ثلاث جهات: عند الله، وعند الأحياء، وعند الميت.
5. **البرزخ.** هو في القرآن حاجز يمنع الرجوع، لا دار يُسكن فيها. والقرآن يعدّ المراحل: حياة، ثم موت، ثم بعث، ثم حساب، ثم جزاء.
6. **الخلاف.** جمهور العلماء يثبتون عذاب القبر ونعيمه، ولهم أدلتهم، وقد عرضناها بإنصاف. ونقرّ بفتنة القبر وسؤاله، ونرجّح أن ما بعدهما رقاد إلى البعث، وأن الجزاء الأوفى بعد الحساب، ونستثني من استثناه القرآن، وهم الشهداء، ويلحق بهم الأنبياء.

7. **أطروحة وترجيح.** الأطروحة التي تسلم على كل قول: الميت لا يجد طول المدة. والترجيح الذي نخالف فيه الجمهور: بعد ما يكون عند الموت من سؤال، لا يجد الميت شيئاً حتى يُبعث. ومن لم يوافق على الترجيح فالأطروحة تكفيه.

8. **العدل.** الجزاء الأوفى بعد الحكم، ولا يطول الانتظار على أحد بلا ذنب، ويُحاسَب الناس معاً في يوم واحد.

9. **الشواهد.** النوم والتخدير، وما عرفته الفيزياء عن الزمن، تقرّب المعنى وترفع الاستبعاد. وليست هي الدليل.

10. **الأثر.** لا يجد أحبابنا وحشة الانتظار. وليس لنا بعد الموت مهلة. فكل الزمن الذي نملكه هو ما قبل تلك اللحظة.

معجم المصطلحات

الزمن الموضوعي: ما تعدّه الساعات والتقاويم، ويشترك فيه الناس جميعاً.

الزمن الذاتي: ما يجده الإنسان في نفسه من طول المدة وقصرها. قد يطول عليه ما قصر في الساعة، ويقصر ما طال.

اللبث: المكث والإقامة. وفي القرآن سؤال المبعوثين «كم لبثتم؟» وجوابهم «يوماً أو بعض يوم».

البرزخ: الحاجز بين شيئين. وهو في القرآن ما يحول بين الميت والرجوع إلى الدنيا، «إلى يوم يُبعثون» (المؤمنون 100).

المرقد: موضع الرقاد، أي النوم الطويل. وهو الاسم الذي يسمّي به المبعوثون ما كانوا فيه: «من بعثنا من مرقدنا» (يس 52).

التوفّي: القبض والاستيفاء. يكون في الموت وفي النوم: «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها» (الزمر 42).

عذاب القبر: ما يثبته جمهور أهل السنة من عذاب أو نعيم يجده الميت قبل البعث. وفي هذا الكتاب مناقشته في الفصول من العاشر إلى الثاني عشر.

المتواتر: ما رواه جمع كثير يُستبعد اتفاقهم على الخطأ. و«التواتر المعنوي» أن تختلف ألفاظ الروايات وتتفق على معنى واحد، هو «القدر المشترك».

خبر الآحاد: ما لم يبلغ رواته حدّ التواتر. والصحيح منه حجة عند عامة العلماء.

أطروحة الكتّاب: الميت لا يجد طول المدة بين موته وبعثه. وهي تسلم على كل قول.

ترجيح المؤلف: ما يكون عند الموت من سؤال وعرض حق، ثم لا يجد الميت بعده شيئاً حتى يُبعث، إلا من استثناه القرآن. وفيه يخالف الكتّاب جمهور العلماء في امتداد العذاب والنعيم، لا في أصل فتنة القبر.

الجهات الثلاث: النظر إلى الحدث الواحد من عند الله، ومن عند الأحياء، ومن عند الميت؛ ولكل جهة زمنها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الأحاديث محال إليها في الهوامش بأرقامها، والتفاسير بمواضع آياتها، لتصحّ الإحالة مع كل طبعة. والدراسات العلمية مذكورة بمعرّفها الرقمي (doi) حيث وُجد.

التفسير

- ابن عاشور، محمد الطاهر. «التحرير والتنوير».
- ابن عطية. «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز».
- ابن كثير. «تفسير القرآن العظيم».
- البغوي. «معالم التنزيل».
- البيضاوي. «أنوار التنزيل وأسرار التأويل».
- السعدي، عبد الرحمن. «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان».
- الطبري، محمد بن جرير. «جامع البيان عن تأويل آي القرآن».
- القرطبي. «الجامع لأحكام القرآن».
- المحلي والسيوطي. «تفسير الجلالين».
- مقاتل بن سليمان. «تفسير مقاتل».
- نخبة من العلماء. «التفسير الميسر».

الحديث

- أحمد بن حنبل. «المسند».
- البخاري. «الجامع الصحيح»، و«الأدب المفرد».
- الترمذي. «الجامع».
- ابن حبان. «الصحيح».
- أبو داود. «السنن».
- أبو يعلى الموصلي. «المسند».
- البيهقي. «حياة الأنبياء في قبورهم».
- الكتّاني، محمد بن جعفر. «نظم المتناثر من الحديث المتواتر».
- الكشميري، محمد أنور شاه. «فيض الباري على صحيح البخاري».
- ابن القيم. «تهذيب السنن».
- الخياط، سامي بن أحمد. «علل حديث البراء بن عازب في احتضار الإنسان وفتنة القبر: جمعاً ودراسة».
- مسلم بن الحجاج. «الصحيح».
- ابن حجر العسقلاني. «فتح الباري بشرح صحيح البخاري».
- الألباني. «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة»، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة».
- السخاوي. «المقاصد الحسنة».
- العجلوني. «كشف الخفاء».
- ابن الأثير. «النهاية في غريب الحديث والأثر».
- ابن قتيبة. «غريب الحديث».
- ابن عساكر. «تاريخ دمشق».

الرقائق

- أبو نعيم الأصبهاني. «حلية الأولياء».
- ابن الجوزي. «صيد الخاطر».
- ابن القيم. «الفوائد».

القراءات المعاصرة

- شحرور، محمد. «الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة». دمشق، 1990.
- منصور، أحمد صبحي. «عذاب القبر والبرزخ». موقع أهل القرآن.

العقيدة والأصول والفِرَق

- ابن القيم. «الروح».
- ابن رشد. «تهافت التهافت».
- أبو رجائي، زياد حبوب (إعداد). «عذاب القبر عند أهل السنة».
- الأشعري، أبو الحسن. «مقالات الإسلاميين».
- أكديد، محمد. «عذاب القبر بين القرآن والسنن». مقال، 2017.
- الأنصاري، زكريا. «غاية الوصول في شرح لبّ الأصول».
- الإيجي، عضد الدين. «المواقف»، بشرح الشريف الجرجاني.
- ابن عثيمين، محمد بن صالح. «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين».
- البزدوي. «أصول البزدوي».
- السرخسي. «أصول السرخسي».
- الشهرستاني. «الملل والنحل».

- الغزالي، أبو حامد. «تهافت الفلاسفة».

الفكر والأدب والفلسفة

- أبيقور. «رسالة إلى مينيكيوس»، في: ديوجين اللائرتي، «حياة الفلاسفة»، الكتاب العاشر.
- أرسطو. «الطبيعة» (السماع الطبيعي)، المقالة الرابعة.
- أوغسطين. «الاعترافات»، الكتاب الحادي عشر.
- بارفيت، ديريك. *Reasons and Persons*. 1984.
- لوك، جون. *An Essay Concerning Human Understanding*. 1694.
- ليبنتز، غوتفريد. *Essais de Théodicée*. 1710.
- هيوم، ديفيد. *A Treatise of Human Nature*. 1739.
- كانط، إيمانويل. «نقد العقل العملي». 1788.
- تولستوي، ليف. «موت إيفان إيليتش». ترجمة وتقديم مها جمال. سلسلة آفاق عالمية.
- سيتشالي، ويزدم. *Live Full Die Empty*. Divine Embassy Press.
- سينيكا. *On the Shortness of Life*. ترجمة C. D. N. Costa. Penguin Great Ideas، 2005.
- فرانكل، فيكتور. «الإنسان يبحث عن المعنى». الترجمة العربية.
- الفيفي، علي بن جابر. «لأنك الله: رحلة إلى السماء السابعة».
- كالانيثي، بول. *When Breath Becomes Air*.
- كلاين، دانيال. «كلما وجدتُ معنى الحياة يغيّرونه». ترجمة شهرت العالم. آفاق للنشر والتوزيع، 2023.
- محمود، مصطفى. «لغز الموت». دار المعارف.
- هنري، تود. «مُت فارغاً». ترجمة عمر قايد. (الأصل: *Die Empty*, Portfolio, 2013).

- Ball, Bryan W. *The Soul Sleepers*: *Christian Mortalism from Wycliffe to Priestley*. 2008.
- Benedetto, Marienza. «Rethinking time through the episode of the Sleepers: from Aristotle to Abū'l-Barakāt al-Baġdādī». *Mediaevalia. Textos e Estudos*, 2023.
- Burns, Norman T. *Christian Mortalism from Tyndale to Milton*. Harvard University Press, 1972.
- Canright, D. M. *History of the Doctrine of the Immortality of the Soul*. Battle Creek: Seventh-day Adventist Publishing Association, 1871.
- Cullmann, Oscar. *Immortality of the Soul or Resurrection of the Dead? The Witness of the New Testament*. London: Epworth Press, 1958.
- Edwards, Paul. *Reincarnation*: *A Critical Examination*. Prometheus Books, 1996.
- Smith, Jane Idleman, and Yvonne Yazbeck Haddad. *The Islamic Understanding of Death and Resurrection*. Albany: State University of New York Press, 1981.
- Lewis, H. Spencer. *Mansions of the Soul*: *The Cosmic Conception*. San Jose: Rosicrucian Press, 1930.
- Pew Research Center. «Beliefs about the afterlife». 2025.
- Stevenson, Ian. *Twenty Cases Suggestive of Reincarnation*. 1966.

الطب وعلم النفس

- Aritake, S., et al. «Time estimation during nocturnal sleep in human subjects». *Neuroscience Research* 49 (2004): 387–393. doi:10.1016/j.neures.2004.04.006.

- Block, R. A., D. Zakay. «Prospective and retrospective duration judgments: A meta-analytic review». *Psychonomic Bulletin & Review* 4 (1997): 184–197. doi:10.3758/BF03209393.
- Cheeseman, J. F., et al. «General anesthesia alters time perception by phase shifting the circadian clock». *PNAS* 109 (2012): 7061–7066. doi:10.1073/pnas.1201734109.
- Parnia, S., et al. «AWAreness during REsuscitation – II». *Resuscitation* 191 (2023): 109903. doi:10.1016/j.resuscitation.2023.109903.
- Pryor, K. O., Y. Jiang, J. W. Sleigh. «Anesthetic Amnesia: The Forgotten Importance of Forgetting?». *Anesthesiology*, 2025. doi:10.1097/ALN.0000000000005544.
- Wehrman, J. J., C. C. Chung, R. D. Sanders. «Anaesthetics and time perception: A review». *Quarterly Journal of Experimental Psychology*, 2022. doi:10.1177/17470218221144614.

الفهارس

تحيل الفهارس إلى الفصول لا إلى الصفحات، لتصلح لكل طبعة وكل قارئ إلكتروني.

فهرس الآيات

البقرة: 24 (الفصل 1)؛ 28 (الفصول 7، 8، 11، 15)؛ 111 (الفصول 10، 15)؛ 154 (الفصل 10)؛ 173 (الفصل 16)؛ 259 (الفصول 5، 6)؛ 281 (الفصل 18)؛ 286 (الفصل 15).

آل عمران: 7 (الفصل 9)؛ 30 (الفصل 8)؛ 133 (الفصل 1)؛ 169–170 (الفصل 10)؛ 185 (الفصول 3، 8، 11، 18).

النساء: 18 (الفصل 18)؛ 98–99 (الفصل 16).

الأنعام: 60 (الفصول 4، 8)؛ 93 (الفصل 10)؛ 132 (الفصل 19).

الأعراف: 32 (الفصل 19)؛ 187 (الفصل 2).

التوبة: 101 (الفصل 10).

يونس: 44 (الفصل 3)؛ 45 (الفصل 5).

هود: 61 (الفصل 20)؛ 103 (الفصل 1).

يوسف: 76 (الفصل 13).

الرعد: 23 (الفصل 17).

إبراهيم: 27 (الفصل 10)؛ 42 (الفصل 11).

الحجر: 29 (الفصل 14).

النحل: 1 (الفصل 1)؛ 20 (الفصل 7)؛ 21 (الفصل 7)؛ 44 (الفصل 9)؛ 77 (الفصل 2)؛ 96 (الفصل 19)؛ 97 (الفصل 19)؛ 106 (الفصول 3، 16)؛ 125 (الفصل 15).

الإسراء: 13–14 (الفصل 15)؛ 14 (الفصل 8)؛ 15 (الفصل 15)؛ 21 (الفصل 19)؛ 36 (الفصل 9)؛ 49 (الفصل 3)؛ 50–51 (الفصل 3)؛ 52 (الفصل 5)؛ 85 (الفصل 14).

الكهف: 11–12 (الفصل 6)؛ 19 (الفصل 5)؛ 25 (الفصل 5)؛ 46 (الفصل 20)؛ 47 (الفصل 8)؛ 49 (الفصول 8، 16).

مريم: 9 (الفصل 7)؛ 39 (الفصل 20)؛ 62 (الفصل 11)؛ 66–67 (الفصل 8).

طه: 52 (الفصل 15)؛ 103–104 (الفصل 5)؛ 111 (الفصل 20).

الأنبياء: 1 (الفصل 2)؛ 16 (الفصل 16)؛ 33 (الفصل 1)؛ 35 (الفصل 16)؛ 47 (الفصل 3)؛ 104 (الفصل 15).

الحج: 47 (الفصول 1، 2).

المؤمنون: 12–16 (الفصل 8)؛ 15–16 (الفصل 8)؛ 99–100 (الفصول 7، 16، 19)؛ 100 (الفصل 7)؛ 113 (المقدمة)؛ 115 (الفصول 8، 16).

الفرقان: 53 (الفصل 7)؛ 70 (الفصل 15).

الشعراء: 18 (الفصل 5)؛ 88–89 (الفصل 19)؛ 90 (الفصل 1)؛ 193 (الفصل 14).

النمل: 80 (الفصول 7، 11).

القصص: 77 (الفصل 19).

الروم: 27 (الفصل 8)؛ 40 (الفصل 8)؛ 55 (الفصل 11)؛ 56 (الفصل 5).

السجدة: 5 (الفصل 2)؛ 21 (الفصول 3، 11).

فاطر: 22 (الفصول 7، 11).

يس: 12 (الفصول 11، 17، 18، 20)؛ 26 (الفصل 10)؛ 31 (الفصل 16)؛ 52 (الفصول 5، 7، 11)؛ 53 (الفصل 2)؛ 78–79 (الفصل 15)؛ 81 (الفصل 8)؛ 82 (الفصل 2).

الصافات: 24 (الفصل 15).

ص: 28 (الفصول 3، 8).

الزمر: 18 (الفصول 9، 12)؛ 30 (الفصل 18)؛ 42 (الفصول 4، 6)؛ 47 (الفصل 11)؛ 56 (الفصل 20)؛ 68 (الفصول 1، 8)؛ 73 (الفصل 1).

غافر: 11 (الفصول 11، 16)؛ 17 (الفصل 3)؛ 46 (الفصل 10)؛ 57 (الفصل 8).

فصلت: 39 (الفصل 8)؛ 46 (الفصل 16).

الشورى: 45 (الفصل 11)؛ 52 (الفصل 14).

الدخان: 56 (الفصل 16).

الجاثية: 22 (الفصل 3)؛ 26 (الفصل 8)؛ 29 (الفصل 15).

الأحقاف: 20 (الفصل 11)؛ 35 (الفصل 5).

محمد: 24 (الفصل 9).

ق: 11 (الفصل 8)؛ 18 (الفصول 15، 20)؛ 20–22 (الفصل 4).

الطور: 21 (الفصل 17)؛ 47 (الفصل 10).

النجم: 39–40 (الفصل 20).

القمر: 1 (الفصل 2)؛ 50 (الفصل 2).

الرحمن: 19–20 (الفصل 7)؛ 26 (الفصل 19).

الواقعة: 49–50 (الفصول 1، 3، 8).

الحديد: 3 (الفصل 1).

المجادلة: 22 (الفصل 14).

الحشر: 7 (الفصل 9)؛ 10 (الفصل 17)؛ 18 (الفصل 20).

المنافقون: 10–11 (الفصل 20).

الطلاق: 7 (الفصل 20).

القلم: 35–36 (الفصل 3)؛ 36–39 (الفصل 9)؛ 37–39 (الفصل 3).

الحاقة: 25–26 (الفصل 11).

المعارج: 4 (الفصل 2).

نوح: 25 (الفصل 10).

القيامة: 3–4 (الفصل 8).

الإنسان: 1 (الفصل 7).

المرسلات: 12–13 (الفصل 11).

النبأ: 29 (الفصل 15)؛ 40 (الفصل 19).

النازعات: 13–14 (الفصل 2)؛ 35 (الفصل 15)؛ 46 (الفصل 5).

التكوير: 14 (الفصل 15).

الفجر: 23 (الفصل 1)؛ 24 (الفصل 18).

الشرح: 7–8 (الفصل 20).

الزلزلة: 6 (الفصل 11)؛ 7–8 (الفصل 16)؛ 7 (الفصل 20).

التكاثر: 8 (الفصل 16).

فهرس الأحاديث والآثار

- «استعيذوا بالله من عذاب القبر» — حديث البراء الطويل: الفصول 10، 12.
- «إنه ليسمع قرع نعالهم»: الفصل 12.
- «هذا مقعدك حتى يبعثك الله»: الفصل 12.
- «نم كنومة العروس»: الفصول 9، 12، 13.
- حديث عائشة واليهودية في عذاب القبر: الفصل 11.
- حديث القبرين: الفصول 10، 12.
- «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» (منسوب إلى علي): الفصل 4.
- «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً» (ليس بحديث): الفصل 19.

- «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة»: الفصل 20.
- «أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: نعم»: الفصل 17.
- «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»: الفصل 17.
- «السلام على أهل الديار من المؤمنين»: الفصل 17.
- «الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان»: الفصل 17.
- رؤيا إبراهيم وحوله أولاد الناس: الفصل 17.
- «من مات له ثلاثة من الولد»: الفصل 17.
- «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون»: الفصل 17.
- موسى قائم يصلي في قبره: الفصل 17.

فهرس الأعلام

- أبيقور: الفصل 18.
- أحمد: الفصل 11.
- أرسطو: الفصل 13.
- الأشعري: الفصل 10.
- الألباني: الفصول 12، 17.
- أوغسطين: الفصل 13.

- الإيجي: الفصول 10، 11.
- أبو البركات البغدادي: الفصل 13.
- ابن الجوزي: الفصل 19.
- ابن القيم: الفصول 12، 13، 14، 19.
- أبو الهذيل: الفصل 13.
- بارفيت: الفصل 15.
- البخاري: الفصول 10، 12.
- بشر بن المعتمر: الفصل 13.
- البغوي: الفصول 1، 5.
- أبي بن كعب: الفصل 5.
- البيهقي: الفصل 17.
- الترمذي: الفصل 12.
- التفتازاني: الفصل 10.
- تندل: الفصل 13.
- تولستوي: الفصل 18.
- الحاكم: الفصل 12.

- ابن حبان: الفصل 12.
- ابن حجر: الفصول 10، 12، 14.
- حذيفة: الفصل 12.
- ابن حزم: الفصل 12.
- الحسن البصري: الفصل 19.
- خالد الجندي: الفصل 13.
- أبو داود: الفصل 12.
- السعدي: الفصول 5، 6، 7.
- سعيد بن جبير: الفصل 17.
- ابن سينا: الفصل 13.
- سينيكا: الفصول 19، 20.
- الشعراوي: الفصول 12، 13.
- ضرار بن عمرو: الفصول 10، 13.
- الطبري: الفصول 3، 5.
- عائشة: الفصول 9، 11، 12، 17.
- ابن عاشور: الفصل 5.

- ابن عباس: الفصل 17.
- ابن عثيمين: الفصل 13.
- ابن عطية: الفصل 5.
- علي بن أبي طالب: الفصل 4.
- الغزالي: الفصل 13.
- فرانكل: الفصول 16، 18، 20.
- القاضي عبد الجبار: الفصول 10، 12.
- قتادة: الفصول 5، 14.
- القرطبي: الفصول 4، 5، 7، 14، 17.
- كالانيثي: الفصول 19، 20.
- كالفن: الفصل 13.
- كانط: الفصل 3.
- الكتاني: الفصل 12.
- ابن كثير: الفصول 3، 4، 5، 10، 11، 12.
- الكشميري: الفصل 12.
- لوك: الفصل 15.

- مارتن لوثر: الفصل 13.
- مجاهد: الفصول 5، 7، 11.
- مسلم: الفصل 17.
- النووي: الفصل 10.
- أبو يعلى: الفصل 17.

«قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم»

رجل مات قبل خمسة آلاف سنة، ورجل يموت قبل قيام الساعة بدقيقة. ثم يُنفخ في الصور فيقومان معاً. أيّهما انتظر أطول؟

يجيب هذا الكتاب: لم ينتظر أحد منهما شيئاً. ويستند إلى جواب المبعوثين أنفسهم في القرآن.

من هذه العبارة يبدأ المؤلف قراءة هادئة لآيات النوم والموت واللبث والبرزخ والبعث، يعرض فيها أدلة من يخالفه قبل أن يناقشها، ويفرّق بين ما ثبت وما ترجّح وما يبقى إيماناً. ثم يسأل: إذا لم يكن بعد الموت مهلة، فكيف نعيش ما قبله؟

كتاب لمن فقد عزيزاً ويسأل أين هو الآن، ولمن يخاف القبر، ولمن يريد أن يفهم قبل أن يصدّق.

هاشم حسين علي الخصاونة